خلود خالد

رواية

أثر النحلة

طيف التّوحد



دار الجندي للنشر والتوزيع

أثر النحلة

طبعة خاصة بالجزائر

دار الجندي للنشر والتوزيع

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

*

darjundi46@gmail.com

www.for-alquds.org

اثر النحلة

خلود خالد

*

الطبعة الأولى (2020).

*



+ 213 798 500 258
+ 213 560 856 497
+ 213 23 435 171
zedit.com@gmail.com

زاد إيديت كوم

أثر النحلة

روايا

خلوود خالد

الطبعة الأولى
2021 م

أثر النحلة

حياتنا كرقعة شطرنج، غالباً ما تكون مرهونة بقانون القوة، و دائماً ما تنذر بوجود جنود مُتطرفين يغلب عليهم الشر، يقودهم ملكٌ جبان، و قد أعلنوا الحرب على بنات أفكار فطرتنا الخيرة، بنية غزوها تحت راية التهديد، فنتصدى لها بتحدٍ مهلك، ونعترضها بقتالٍ دامٍ، وننازعها بمشاحنة موجعة، مُتنقلين بخطوات حذرة بين الأبيض والأسود، بين الخير والشر، بين الحيرة والخوف، ولا مكان للرمادي، بغية الإيثار، الوفاء، الإخلاص، المسامحة، السلام، بعد أن حاصرتنا الحياة في مآزقها، وقد هَيمنَ على جنودها الكره والبغضاء، الخوف والحسد، الأنانية والخيانة، الحقد والجدال، مُضلين طريق الانتصار الذي يفصله عن كربتنا خطوة مدروسة بإستراتيجية، حاملين ذات القوة، بل أكثر بالتصدي لها، إبَّان قتل ملك الشر الذي يحول بيننا وبينه شيء من الصبر والشجاعة والتحدي، والكثير من الإيمان، مهاجمين بذلك ملك السيطرة (ملك الظلام)!

الحياة مرهونة بقوة إيماننا، إما الفوز أو الخسارة.

"ما أكثر صعاب الحياة الدنيا، وكأن الهلاك قد وُجد فينا قبل أن نخلق، وكأن النهاية رُسمت قبل البداية، وكثيراً ما تضعنا في أسفل السافلين، وكأنها تخبرنا بأنها دائمة السقوط والخيبات، و كثيرة الآلام والفقدان، تجبرنا على أن لا نظن بها خيراً عاجلا، ولا فرجاً دائماً، لتبرهن لنا بأنها الأولى وليست الأخيرة، المنتهية لا الأبدية، إنها الدنيا حياة خُلقت للموت."

مازالت أفكاري تتصارع وتتداخل مع بعضها البعض معلنة حربا باردة عالية الوطيد، وكأن موج البحر قد زار عقلي فقط، وترك قلبي يخوض المد والجزر، لوحده، وسط تلك الفوضى العائلية، التي ارتسمت فجأة في واقعي، وحاصرتني من جميع الجهات، دون أن تمنحني حرية كوني إنسان، وكأنني استيقظت من حلم الطفولة الجميل، ويقظة المراهقة المثيرة، إلى واقع فوضى بحر الزواج هذا، وكأن عمري الذي تجاوز الثلاثة والثلاثين عاماً، يخبرني بشماتة ويوهمني سراباً بأنني قد ركبتُ سفينة الخمسين، دون أن آخذ معي تذكرة البقاء التي تحميني من الغرق، في ظل التسارع المخيف لموج أعمارنا المقترنة ومسؤولياتنا.

أنا دلال مدللة والـديَّ و وحيـدتهم، تلـك الصـفة القدريـة، وذلك القضاء الرباني، جعل مني إنسانة متطلبة بـلا حـدود تـوقفني، وراجية بلا عهود تنذرني، رغماً عني أصبحت وحيدة عقلي وآمـالي، لا أفكر إلا بنفسي ومتطلباتهـا، تلـك العاقبـة، لم أكـن أنـا الوحيـدة المسئولة عنها، بل كان لأمي والتي ساعدتني بخوض أسبابها بـاحتراف وتباهٍ، ضلع كبير فيه، حتى أصبحت أتـذمرُ مـن عطسـة في منتصـفِ سهياني!

أذكر أنني كنت مدللة منذ صغري، منذ كنت في أحضان والدي الذي وافاه الله قبل أن أصل إلى عمر العاشـرة، ورغـم مـرض أمـي لاحقاً إلا أنني كنت مُصرة بأن ألقي بـدلالي المفـرط عليهـا لتتقبلـها بصمتٍ راضٍ، وتعبٍ دامٍ، لم أكن أفكر بالمسؤوليات تجاه أي شيء، لم أكن اعلم أصلا بأن الحياة هي مسؤولية.

كنت قد عشت حياتي وسط مفعـولين مـن الماضـي والحاضـر وربما المستقبل، لكن لم يكن في حياتي أي وجود لفعـل الأمـر، حتـى أمي ساعدتني في تخطي الأوامر حين تجنبت إصدارها، فمـا كـان مـن المصدر إلا إلغاء إعراب الفعل، حتى بتنا نشكل جملة اسمية أساسـها مبتدأ وخبر، لم تكن تفرض علي شيئا قط، لدرجـة أنهـا نسـيت بـأن تكلفني بأي مسؤولية طيلة فترة وجـودي معهـا، كانـت تعتمـد علـى أمومتها الفطرية وطاقتها المتبقية.

"عش حياتك بأفعالها كلها، الماضي لا تنساه لكي لا يُنسيك من أنت، والحاضر افعل به لتتقدم، والمستقبل اعمل وفكر لتتأمل، والأمر خذ به لكي تكون قادر على التحمل، وإذا انتقص منها شيء سينقص ذلك منك!"

كنت أسعى دائما بأن أكون الأولى في كل شيء، حتى في تلك الأشياء التي ليست من ضمن أولوياتي، كانت أمي تساعدني في هذا، حتى وصل بها التطرف في نصرتي، بأن تساندني بان أكون الأولى في نومي، كنت أسهر طوال الليل بين شاشات التلفاز والانترنت وأوهام تطبيقاته، وأحيانا قليلة بين حقائق كتبي المنسية، وأختمها بغفوة صباحية تحجبني عن واقع اليوم المقبل، لم أتذكر يوماً بأنها سعت محاولةً بأن تنصحني بمقاطعة تلك العادة، أو حتى برفع كرت أحمر ينذرني بخطر مخالفة السنة الكونية، و التي خلفت مني فتاة كثيرة الكسل والاتكالية، وكأن اسمي تترجمه أفعالي، حتى تشكلت حروفه على هيئة مرآة تعكس رسمي وتصادقني المعنى.

ورغم كل هذه الأنانية في دلالي لذاتي، إلا أنني قررت بسطحية مطلقة، خوض معركة الزواج، دون التفكر بعواقبه أو حتى السؤال عن أساسه، وأنا بأوائل العشرين من عمري، تلك الحقبة التي تشعركِ بأنكِ ما زلتِ تملكين الكون بذلك الأمل الذي يخيم على أحلامك، ورغم قصر هذه المرحلة، و التي تغدو بهرولة سارقة معها

ذلك الإحساس بالقدرة على الأخذِ و العطاء ومصحوبة بالاستسلام للأحلام!

حين قدم حسام لخطبتي، لم أرَ فيه إلا الشاب الوسيم الرقيق، المفتول العضلات، وبتلك الصفات لابد انه سيحقق حلمي و يضعني في خانة الحسد، من قبلِ رفيقاتي التائهات في عصر جهل أفكارهن، ولحسن الحظ أنه وقع في مصيدة أحلامي، دون تخطيط مسبق مني ليكون زوجي!

وافقت عليه على الفور ودون تردد يضمن لي خط الرجعة حتى، مجرد أن وصفته لي أمه وعمته العانس كما يناديها مُجتمعها الناقص، اللواتي أتين سويا لمعاينتي قلباً وقالباً، حينها قالت عمته بفخر مُشجع لمرادي.

ـ حسام وسيم وأنا احسد الفتاة التي ستكون زوجته.

سألتها أمي بشيء من الشغف بعد إن وضعت فنجان قهوة مجاملاتها أمامها.

ـ ولمَ؟

أجابت بغرور.

ـ انه جميل جدا، عريض الكتفين وابيض البشرة طويل القامة وشعره اسود يشبه ليلُ أنيس لم يزره القمر بعد.

ظننت أنها قصدتني حين قالت القمر، فسرعان ما كونت صورته في مخيلتي أثناء وصفه، أغمضت عينيَّ ودخلت سمائه وأنرت عتمته بنور وجهي، حتى استقر قمري والتصق بين نجوم وسامته واقترنت النجوم بالقمر وأعلنا عرساً كونياً، تغار منه الكواكب، ورأيت بذلك عيون صديقاتي تتأرجح في سمائنا معلنات الحرب علينا؛ حسداً و غيرةً و تمني، وبهذا الإحساس امتلكت الكون بين ضلوعي كمالاً، بعد أن نظرت إليه بعيون صديقاتي لا بعيوني، وكأن رأيهن قد زرع في عقلي شوكة ستجرحني، إن لم يكن هو كما يردن هن، شعرت بأن الغرام الذي بداخلي نحوه، لن ينتهي مادام جماله باقٍ، كان تفكيري بالشكل الخارجي قد أخذ زاوية منفرجة في مُثلثِ عقلي، دون السماح لبقية الزوايا بأن تشاركها المساحة المطلوبة بهندسة منطقية، لتتشكل على هيئة تفكير سليم تتناسب و تليق بإنسان يفكر، وقد أكرمني الله الاختيار، وميزني عن سائر مخلوقاته بالعقل!

أفقت من خيالاتي، بمقاطعة من والدتي حين سألتها بشراسة.

ـ هذا لا يهم، كيف هو؟

الآن فقط عرفت معنى سؤالها، أدركت بأن شراستها خرجت في مخالب حروفها، وقد تشكلت لتدافع عن مستقبلي المبهم، كانت تقصد شكله من الداخل، تسأل عن عقله وقلبه وسلوكه، تسأل عن

علاقته بربه والآخرين، تسأل عن حاله مع الدنيا، تسأل عنه قليلا الآن، لكي لا تسأل عني كثيرا فيما بعد.

أما أنا فقد وسعت حدقت عيني حينها، وصرخت بشيء من الأدب، محافظة على وضعي ومكانتي كعروس أمام متفحصيها بقول:

ـ انه وسيم يا أمي ألم تسمعي؟

تنهدت حينها ولم تكمل حديثها، وأغلقت قلبها عن المجادلة، كنت كثيرة العناد والإصرار، ولم تكن أمي قادرة على خوض أي غزوة جدال معي، لأنها تعلم بأن الخسارة ستكون حليفة قلبها المحق، وبأن محاولاتها في مجادلتي ونصحي ستهلكها أكثر وأكثر، ولن تستطيع إنقاذي من بحر جهلي الذي كنت غارقة فيه، لأنها تعلم بأنها لم تعلمني ركوب الموج!

"الرجل المُختار للزواج، يجب أن يكون سيفاً، قادراً على أن يحمي شريكة أيامه من عثرات الزمان، بقوة صلابته بالمواجهة، وجميل لطفه معها، و سندا تتكئ عليه لسنواتٍ طوال، لكي لا تقع في حُفر وخداع الحياة، وربما هو القوة الأخرى، الذي سيرافقها في ضعفها، هذا الوجه الحقيقي الذي يجب أن تنظر إليه الفتاة في فارس أحلامها."

حضر المأذون وشاهدين وقد احتلوا حريتي، بعد أن شهدوا على توقيع وثيقة قد تربط اسمي برجل آخر غير والدي و حتى الممات، وتدخلني في سجن شخصٍ غريبٍ عني أسموهُ زوجي.

لم أكن اعلم بأن ذلك الحب الذي كان منبعه شكله، قد ينتهي، أو انه سيتقزم شيئا فشيء، بمجرد أن يطلب مني كأساً من الماء البارد، وأنا اغرق في بحر مناماتي وما تبقى من أحلامي التي سرقتني من الواقع إلى الخيال، لتلاقيني هناك في عالم الأرواح، لم أكن أعي بأن اصغر المسؤوليات تجاهه ستنسيني من أنا! وما أحب! و ستأخذني من دلالي إلى الهوان، بمجرد أن أكون أم لثلاثة أولاد وزوجة لرجل، لم اعلم من يكون بعد، رغم مرور سنوات أضعت بها عقلي مجازفةً، قبل أن يزداد عمري منطقاً!

ذلك الإحساس بالضعف أمام الزواج قد زاد من اضطهادي لكل من هم حولي، حتى أصبحت متمردة على كل شيء، وقد قُلبت سفينة حياتي التي بنتها والدتي لي يوما بعد يوم بالمجان، دون أساسات هندسية متمكنة، وأصبحت أبحر بحيرتي وعجزي، وكأن قبطانها لا يحمل شهادة القيادة ولا حتى بذلة العوم، لتحميني من الغرق، بل تحولت و بدون ابتغاءٍ مني إلى جارية لقبطانٍ آخر يقود سفينة حياتي، وقد كلفني بخدمته وركابه الذين يحملون اسمه هو، ويسلبوني حياتي أنا.

لم أكن أعلم بأن هذا المستقبل هو حليفي، أم أنه سنة الحياة؟ لكني قد أدركت لاحقاً بان السفينة يجب أن تُوزع لمن يقودها بحرفية وإلا سيكون الغرق مصيرها، وهذا الإدراك قد أتى متأخراً.

لم تقل لي أمي يوما بان للحرية نهاية، ستنتهي حين تبدأ حياة الآخرين، ولم تلقنني دروساً في القناعة، كنت أسمع بأنها كنز دون أن اعلم بأن هذا الكنز ليس محسوساً، ولكنه ينبع من الإحساس بالاكتفاء، لم أكن اقل الحمد لله حين اكتفي بنعمه، وهذا يكفي لأكون مجنونة، في مجتمعٍ أكثر جنوناً.

كنت ابذل جهدا كبيراً في تعليم أولادي الحق، والالتزام، والأخلاق وحتى المسؤولية التي فقدتها منذ صغري ولحسن الحظ عوضتها في إعطائهم إياها بحذافيرها.

"فاقد الشيء يعطيه بحرفية".

في البداية، كانت أمي تساعدني إن استطاعت، حتى حسام لم يكن يمتنع بعض الأحيان في توجيههم، لكني كنت دائما اشعر بنقص كبير، نقص يشعرني بأن الفجوة ما زالت تُسقط علينا وابل كثيف من السلوكيات والتعاليم البذيئة، لم أكن قادرة على ضبط فرد في ظل جماعة، لم أكن اقدر بأن الحق بهم إلى المدارس، الى بيوت أصدقائهم، أرصفة الشوارع، كل تلك الأماكن ومن يقطنوها حتى لو اختلفوا معك بالمبادئ والأخلاق، إلا إنهم سيتركون أثرا كبيرا في عجينة المربى.

التربية لا تقتصر على العائلة، بل مجتمع كامل يتكاتف معا من أجلِ أن يُخرج جيلا مربى و مسئول.

في منتصف ليلة ما، أفقت من نومي على صراخ ابني محمد، عمره سبع سنوات، يحب جذب الاهتمام لشخصه، أكثر من اللازم وشغوف بكل ما هو جديد، حتى الكلمات البذيئة، كان يحملها معه من المدرسة وينطق بها و أمامنا فخرا وليس عيبا، معتذر بقول.

ـ **كلمة جديدة.**

لم نكن قادرين على منعه من كل تلك الحروف الدخيلة على قيمنا، التي تأخذه منا واليه، لنتذكر بشاعة المجتمع الذي يؤوينا، والذي تحول إلى مسرح طائش، ونحن جمهوره، حينها أيقنت تماما بأن التربية وتغيير جيل، لا تشمل شخصا واحدا أو حتى بيتا واحدا.

فور خروجي من غرفتي صوب غرفة أولادي للحاق بمصدر الصوت، و بسرعة الأمومة، والتي كادت أن توقعني بعجلتها، وبعد أن فتحت الباب، ركضت صوب محمد، حضنته بصمت.

ـ ما بك حبيبي؟لمَ الصراخ؟

نظر إلي بخوف، ثم عاد واحتضني، وبكلماته البسيطة عبر وقال.

ـ لا تتركيني، لقد رأيتك تغادرين البيت، لا تذهبي.

اشتد حضني واقترب قلبي أكثر من قلبه، لعل دقاته تغمره أمانا فيطمأن..

ـ لا تخف، أنا أمك، أنا مأمنك وأمانك.

حين عدت إلى فراشي، ابتسمت ساخرة من نفسي، وكأنني أتحول إلى إنسانة أخرى لا تشبهني، فاعترتني التساؤلات وكأنها تعايرني بما مضى، كيف لي أن اترك فراشي الدافئ مسرعة لكي أطبطب على آخر؟ كيف لي أن أتقبل فكرة التخلي، في الماضي لم أكن أتخلى عن نبرة صوتي من أجل الجيران، هذه الكلمة لم تكن مذكورة في قاموس دلالي من قبل، كيف سطرها حاضري حتى أصبحت معناً عميقاً لمفرداتي، دون استئذان أو خجل من قناعاتي؟ كيف لي أن أكون أماً؟

تلك المسؤولية كانت أعظم من أن أفكر بها، أو حتى أتخيلها، تلك المسؤولية بدلتني، وبدلت أيامي، حتى وصلت لأحلامي فأضاعتها.

المطبخ، بالنسبة لي هو شرفتي الأولى التي أبدأ بها يومي، وأفرانه مرآتي التي أرى بها وجهي، وقد استبدلت علبة ماكياجي الفاخرة، بثلاجة احتفظ فيها بقوت أولادي، والمكوث بين الأطباق، وصوت احتكاكاتها وتنظيفها أصبح عادة متكررة لا بد منها، وقد أبدلتها بالتأمل، وصوت فيروز. لم أكن قادرة بالتخلي عن كل

مسببات السعادة تلك، واستبدالها بغيرها بسهولة، لكن سُنة الحياة قادرة على أن تأخذ منا أرواحنا، لتعيش فينا أرواح أخرى.

"مهما تمسكنا بأشيائنا، مقتنياتنا، مبادئنا، طقوسنا، وحتى أعزائنا، أحيانا يجب أن نتخلى، نتخلى لكي تسير حياتنا دون توقف، بالرغم من أن لحظة التخلي لحظة مميتة بحدِ ذاتها، إلا أننا نتخلى من أجل أن نخلص ونستمر."

في يوم الجمعة، وبعد أن انتهيت من تجهيز مائدة الغداء، بحب عميق، وشيء من التعب الذي سكن جسدي وتغلغل فيه منذ زمن ارتباطي، وكأن تعب الأم بنداً من بنود عقد الزواج! في هذا اليوم بالذات كنت حريصة على أن أعد السفرة بإتقان، كان علي بأن أمهد لنفسي ولعائلتي يوماً حافلاً من التلاحم، وكأننا نعيد ترميم جسداً واحداً يعيش فينا، على أمل أن نعيد شيئاً من البعد الذي نشعر به طوال الست أيام السابقة، كما أنني و في كل أسبوع وفي هذه الساعة، احرص على أن تكون سفرتي مهيأة بطريقة من شأنها أن تجذب الأب والأولاد نحوي، وكأنني اذكرهم بوجودي من خلال نكهة معينة أو صنف محدد من الطعام، أو حتى نوع الأحاديث المُختارة. لم يكن زوجي حسام يجلس على رأس السفرة كما يفعل باقي الآباء، ليعطوا لأنفسهم هيبة الحضور، أو حتى ليكونوا محافظين على مقامهم، ويراعون ومن حولهم بسلطتهم، كان يصر في كل مرة على

ان يكون هذا الكرسي من نصيبي، مدعيا بأنني اعشق مراقبة الجميع حين يأكلون، و بأنني استحق هذا المكان بعد تعب طويل، لا أدري أن كان كلامه صادقاً، أم أنني مازلت اجهل نيته حتى الآن؟

اعتقد أحيانا باني افهمه، وأحيانا أكثر بأن شيئا قد تاه مني فيه، هناك إحساس اتجاهه منفرداً ولا يمكن ترجمته، حتى هو لا يسمح لي بتجاوز حدودي في فهم ذلك المجهول، ولم يوصلني بعد إلى بره.

جلس حسام على يميني على طاولة الطعام كعادته، و على يمينه جلس احمد ابني البكر ذو العشرة أعوام، هو بالذات يذكرني بأني قد هرمت، وبأن زواجنا قد مضى عليه عمرا شاقاً، وبان الماضي الجميل قد أصبح بعيدا، وبعيدا جدا بقدر جماله، أما محمد ابني الثاني فهو مازال يذكرني بأن الأمل موجود كلما نطق وصرخ وكلما قبلني، يشعرني دائما ببهجة الحياة، له ميزة خاصة في قلبي، أهتم به كثيرا، حتى إنني اخبىء له بعض الحلويات دون الباقي، لا ادري السبب لكني أؤمن بأن لكل شعور سر، أحيانا أوعز ذلك واربطه باقتران اسمه باسم والدي، أو لأنه يشبهني من الداخل في دلاله، أما ابني الأصغر ناصر، لا اذكر إلا إن حفلة ميلاده بعد شهر تقريبا، وسيغادر عامه الثالث.

ـ لا ادري لما يتخدر لساني عند ذكره.

سكبت في كل طبق قدرا من شوربة الفطر بـالكريم، دائمـا مـا أعدها من أجل زوجي حسام يطلبها مني باستمرار، حتى انه يعتبرهـا من المسليات حين يجلس أمام التلفاز، أما أنا فهدوء اللحظة وصـوت الأطباق يزيد من رغبتي المستمرة لكي اشعر بسعادة الساعة اتجاه هذا الترابط الذي أتمناه على الدوام، وفي لحظـة هـز ناصـر برأسـه ثـلاث مرات وبغضب، وقد اخترقت اهتزازاته تلك قلبي بألم، معلنـا رفضـه لذلك الطبق، دائما ما يشير إلى رفضه للطعام، معلنـا بإشـارة أخـرى رغبته بتناول الأرز أو المكرونة، تجاهلت معرفة السبب رغبـة مـني في التخلص من العجب! إلا أن صراخ ابني محمد ليلة البارحة، مازال في رأسي وهذا ما دعاني إلى مقاطعة لهفتهم وسعادتي.

ـ محمد، هل أنت بخير؟

نظر الآخر إلى أخيـه أحمـد علـى الفـور، دون أن يحـرك رأسـه ملتفتا إليَّ بنظرة جواب تشفي قلقي، وما زالت لقمته في فمه تُمضغ، ثم عاود النظر إليَّ، وهز برأسه مبتسما.

لم احتَج حينها إلى أن أكمل حروف طمأنينتي عليه، فقد اكتفيت بهذا تماما، إلا أن احمد تبسَّم لي وقال.

ـ لا تصدقيه، محمد مازال يبتكر لكي ينتصر.

أغمضت طرف عيني برفه حائرة، نابعة عن جهل مني في فهم مقصده، وتدخله المفاجئ.

ـ وماذا تقصد؟

وقف محمد من على كرسيه مهددا.

ـ إن لم تصمت سأسبك.

صرخ حسام معلنا انتهاء الحرب الأخوية، التي نشبت بافتعال سؤالي.

احمد متمرداً بطبعه بعض الشيء، ولم يكن يصبر على شيء حتى يقوله، أو يفعله، لهذا أجاب رغم التهديدات.

ـ محمد افتعل كابوسه ليلة البارحة، لكي تحبينه أكثر منا.

قالها وانصرف إلى حجرته، أما الآخر فقد انحرفت عيناه خجلا، واشتعل قلبه حزناً.

لم أكن أعلم بأن حبه للاهتمام قد يدفعه للكذب والخداع، متحملاً الشتم والتهديدات، ويختمها بالحزن.

أنا السبب، نعم، لقد أهملته بالفترة الأخيرة ولم أعد أجلس بجانبه كما كنت افعل، ولم أعد أقدم له الطعام بمفرده حرصاً على صحته، حتى إنني لم اسأله غاضبة عن دروسه، ربما لان تعلقي بأخيه ناصر قد زاد بالفترة الأخيرة، لقد أهلكني الأخير سكونه وغموضه،

حتى أصبحت أعد الأرز كل يوم لإطعامه، فهو يرفض أن يأكل أي صنف خلافه، ذلك الاهتمام بغيره جعل أحمد مبتكراً، خداعاً، يفكر كيف يمكنه أعادتي إليه قصراً بعد أن ذهبت إلى غيره شفقةً.

"يتربى الإنسان في علاقته مع البشر على التعويد، فاحرص في علاقاتك على ماذا تعود الآخرين."

كل ذلك الحب لابني محمد لم يشفع له، بتبرير بعدي عنه، لقد مكر لي ليلتها، وقطع نومي ليوقظ اهتمامي.

قمت من مكاني مسرعة واحتضنته حضنا يساوي ألف قبلة وهدية، حضن أم لولدها!كان ذلك الاعتذار كافيا لي وله.

"الاهتمام يعني الحب، إن أحببت ستهتم، وان اهتممت يعني انك تحب، كلاهما مقترن بالآخر، جميعنا بحاجة للاهتمام، وإلا سنذبل كما الوردة التي فقدت اهتمام ناظريها ومحبيها

.والداك بحاجة إلى لاهتمامك، حتى وان باعدت بينك وبينهم الأيام، فسؤالك عنهم اهتمام، تقبيل أطفالك اهتمام، زيارة رحمك اهتمام، ووردة لزوجتك اهتمام، وإعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه اهتمام، إن فقدنا الاهتمام من مسؤولياتنا ومن يحبوننا، سنصبح وكأننا في ثورة شعوب غاضبة لإعادة الاهتمام، لن يفكر أي مخلوق بالتمرد بثورة إن وجد الاهتمام، الشعوب عندما تفقد الاهتمام من حاكميها تثور معلنة موت صغارها أمام إهمال كبارها."

لم تكن حياتي كزوجة وأم سهلة، بل كنت اشعر بأنني أخوض التحدي مع نفسي يوميا دون توقف، ذلك التحدي كان دائما ما يجعلني أفكر بأمي، بالرغم من بعدها عني الآن، لكونها زائرة عند بيت أخيها في الولايات المتحدة، إلا إنني في كل عمل أقوم به عادة ما أتخيل وجودها البصري، فهي ترى كل شيء أقوم به، وأتحدى نظراتها التي تحمل توقعات الفشل لي، ليتها تعلم بأن دلال قد قاومت جميع الجبهات، عناد الزوج وغموضه، طلباته التي لا تنتهي، أطفالي الثلاثة ومراعاة الفروق بينهم، رعايتهم، اهتمامهم، ليتها تعلم بأنني قبل أن أفكر بطبقي المفضل أفكر بالطعام الذي لا يحبونه، ليتها تعلم بأن دلال ازدادت خشونة، وأصبحت مسئولة إلى حد يفوق طاقتها.

بعد كل غداء اعتدنا أنا وحسام أن نجلس سويا، لارتشاف كوبين من الشاي، تلك اللحظة هي لحظة زوجية فقط، لم نكن نسمح لأولادنا أن يشاركوننا إياها، ليس ظنا منا بأن الشاي قد يضر بهم، كما علمونا من سبقونا بالتوقعات، بل لأننا نشعر بان هذه الجلسة المميزة التي لا تتجاوز النصف ساعة هي لنا نحن، هي لحظتنا، هي مخرجنا إلى الحياة الأخرى، حيث التصافح، أو إلقاء التهم، بعيدا عن الأطفال والمسؤوليات وبعيدا عن ضجيج العائلة ومشاكلها، هنا نتفلسف بتوتر، و نتبادل ثنايا حروفنا الحارقة التي لا تخرج إلا من بين

أطراف لحظات الهدوء والاسترخاء، هنا نوجه لبعضنا البعض اسئلة عميقة ومقصودة، ونجاوب عليها دون تردد ولا حتى مراوغة، وكأننا نلعب لعبة الصراحة وبشكل يومي روتيني، لكي نتعرف على أنفسنا على مهل مقصود و ببرود، برفقة كوب الشاي الساخن، لا أعلم ما هو سر اللحظة، أو ربما هو ليس سراً، بل حاجة.

في ركن من أركان غرفة المعيشة جلسنا، كان يحمل بيده اليسرى كوب الشاي، وبيده الأخرى يحرك بإصبعه أوراق النعناع الذي يطفو على وجه الكوب، بينما كنت أراقب حركته المتكررة تلك، أيقنت تماما بأنه قد وقع في حيرة أمره، كان منهمك التفكير وشارداً، و ما كان مني إلا أن أحرك لساني وأسأله.

ـ ما بك؟ لما كل هذا التوتر؟

تنهد كثيرا، ووضعها بجانبه ثم نظر إليَّ وكأنني متهمة.

وسأل:

ـ ما الذي حصل لمحمد ليلة البارحة؟ ولم لم تخبريني حينها؟

اعرف حسام يعشق التفاصيل التي من شأنها أن تحجمني في هيئة الفشل، وخاصة تلك التفاصيل بيني وبين أولاده، يعشق الاهتمام بهم بطريقته هو، بصفة المتسلط، يعشقهم بتذمر، بجهل المعلم، وملل الأب الروتيني! بطبعه عديم الصبر، وكأنه بسؤاله هذا يحاول أن يثبت أمام جل مسؤولياتي، بأنه الأب المسئول الناجح

والوفي، بينما أنا المذنبة دائما بإخفائي عليه تفاصيل مملكته التي لا يحكمها إلا بكلامه، ولا يديرها سوى بماله، نعم لم اقل له عن تلك الحادثة، خوفا على نفسي من كثرة عتابه، وإسقاط ذنوب رعاياه على عاتقي.

أجبت:

ـ مجرد كابوس صغير مخادع، أصاب محمد.

ثم أكملت.

ـ الحادثة بسيطة لا تعقب عليها، كما تفعل دائما وبلا فائدة.

فجأة قام من مكانه، وقذف بكأس الشاي جانبا، حتى تناثرت قطرات الشاي على وجهي، وتبعثرت فُتات الزجاج أرضا، وكأنها قطرات مطر غاضب قد هطل بعد يومٍ لهاب، كان المنظر قد أوجس في نفسي خيفة وغضب، حتى تلعثم لساني عن الرد، وانهمرت دموعي لتعلن سخطها عليه.

هذه الحالة لا تتكرر كثيرا، قليلا ما يجن و قليلا ما يغضب، لكن كثيرا ما يؤذيني، كمية غضبه النادرة هذه تقتلني.

لم يصبر حتى تقدم نحوي، طالباً احتضاني، وراجياً الاعتذار، أبعدته عني بعنف امرأة تائهة سبق وأن قتلها رجل متمكن، تركني وذهب ليلملم فتات غضبه من حولي، هدأت مبتسمة بنية إسكاته لا غير، وفي نفسي كنت أتمنى لحظة انتقام تنصفني فتصيبه قطعة زجاج

بجرح يهدأ من غضبي وشفقتي على نفسي، وأتشفى برؤية دمائه تتساقط من يده، لكي تبرر لدموعي ذرفها، ولكي تشفي حروقا قد لامست قلبي وجعها دون أن يذنب، لكن نادراً ما تنصفنا اللحظة الممزوجة بالأمنية.

سألني، واثقاً.

ـ هل سامحتيني؟

هززت برأسي مبتسمة، وفي داخلي انفجار،

ابتسم منتصراً، حتى انفجر بركان قلبي بصمت، حينها ظن أنه منه و بفعلته هذه قد أذابها استسلامي المُتسرع، ثم عاود وسألني.

ـ هل محمد، بخير؟

ثم أكمل مبرراً.

ـ أنا غضبت لأني أتمنى بأن أتحمل المسؤولية معك، فقط.

تقهقهت بضحكة مجروحة، وأرجعت الشاي إلى إبريقه، دون أن ارتشف كرامتي معه، ثم أجبته بمكر واختصار .

ـــ محمد فقد اهتمامي، فحاول أن يبتكر طريقة مُخادعة لاستعادتي إليه، هذا كل شيء.

تنهد بفرج، وذلك لأني بتلك الحروف المختصرة لم اخرج عن طريقه، ولم أعاتبه، ولم أضع نفسي في مكان القوة لاستضعفه كعادتي، بل أجبته بهيئة اعتذار، مخالفة بذلك عنفواني!

"يصيبنا الغباء أحيانا، غباء الرد، غباء العتاب، وغباء اللقاء والوداع، أضف إلى ذلك غباء الاعتذار، وكأن الغباء في هذه اللحظات يتصدر عقولنا، في لحظة ضعف ممزوجة بالحق، فنتوه بالرد، ثم تعود عبقرية كرامتنا، تعاتبنا لعدم القدرة على النطق بما نشعر به حينها.

لاشيء يدوم في دنيانا، لا الحب ولا المشاعر ولا حتى جمال اللقاء الأول، لهذا لا تتوقع الاستمرارية ولا تنتظر الدوام، فهذا التوقع من أعلى درجات الوهم التي قد تصيبك وأنت مازلت تنتظر .

فالحياة لا تمنحنا المواظبة في مشاعرنا، وأنفسنا، وحبنا و علاقاتنا، حتى الأحلام لا تستمر ثمَنِيها، فهي تختفي كالضباب الموسمي المشروط بأحوال الجو، كلما طال طريق الوصول إليها!"

عاود وسألني.

ـ هل ندمتي بالزواج مني؟

أجبت بصدق.

ـ أنا مقتنعة بك.

انكفأ رأسه يمينا على حافة النافذة، متجاهلاً جوابي.

أكملت موضحة.

ـ القناعة تولد الرضا، الرضا ليس فقط بالأرزاق، وإنما بعلاقاتك مع الآخرين أيضاً.

رد علي ساخطاً.

ـ أنا وأنتي علاقة؟

أجبته.

ـ إذا كان أساس التدين هو علاقتك مع الله.

ـ فما بالك البشر؟

يصمت دائما كعادته حين أغلبهُ بالرد، العقل الذكري يرفض غاضبا أن يُهزم من النساء، حتى لو كانت الخسارة مصحوبة بالمنطق.

ناداني بهدوء متسائلاً:

ـ دلال هل مازلتِ تحلمين كما قبل؟

استشفت من سؤاله، بأنه يحاول أن يضعني في فخ أسئلته، وكأنه يريد أن يخرجني من جلسة الشاي هذه مهزومة تماماً، ولم تكفه بعد خسارتي الأولى، أو ربما يحاول زحفاً بحروفه ونبراتها للانتقام مني، فالرجال لا ينسون.

أجبته.

ـ الأحلام تتقزم، وتتبدل، وتتغير مع مرور الزمن، أحلامنا مرتبطة بنضجنا وخبراتنا وحتى بوضعنا المادي، فمن الأحلام ما يذهب مع الأيام، ومنها ما يتبخر لكثرة خيباتنا.

ـ لم أعد أحلم كما السابق، حين كان عمري عشرين عاما، حلمت كثيراً، بأن اسكن قصراً، يتوسطه درجاً ضخماً، انزل عليه كأميرة من عالم القصص، لملاقاة صديقاتي المقربات، وأنتشي فرحةً وكبرياء، عندما أتلمس انبهارهن أثناء نزوليي، حتى تشعرني بنشوة برجوازية فريدة، ولم اعد احلم بأن يصبح ابني البكر طبيبا، ليسمونني أم الطبيب فلان، ولم اعد احلم بأن يكون زوجي مثالياً، وخاتم ارتديه بإصبعي كما السابق، حُلمي الآن يتشكل على هيئة بيت سعيد، وأبناء أصحاء، وزوج صبور، في بلد خالٍ من الحروب.

ابتسم بصوت عالٍ، تكاد ابتسامته أن تنطق شماتة، هذا يعني بأن معظم أحلامك قد تبخرت؟

أجبته على الفور:

ـ لكن الهدف يكبر كلما كبرت، ٱجعل لحياتك هدف وليس حلم.

في ليلة من الليالي، كنا قد جلسنا معاً في غرفة الجلوس، بعد ان ناموا الأولاد، أعددت الشاي وجلست بالقرب من النافذة، وعلى ضوء القمر، الذي يبدل ظلامي بجماله نوراً، وبسحره يمنحني ونيساً، وبهدوئه رفيقاً، أثناء ذلك كان حسام يجلس على مقعده، بجانب مذياعه، يقلب محطاته، باحثا عن الأخبار المتداولة حول ثورات

الدول العربية، فهو يؤمن بأي ثورة، حتى لو كانت ضد الشعوب، يعشق التغيير والتمرد.

أتذكرُ ليلتها فجاةً أطفات الأنوار بفعل انقطاع الكهرباء، فأصبح المذياع جليسنا الوحيد، أضاء عشر شموع سبق وأن أحضرها بعد زواجنا بشهر واحد، كفنها بقماش أبيض ضد الماء، واخبرني بأنه يُخبئها لجلساتنا الرومانسية القادمة والمتكررة على حد تعبيره، لكنه نسيها ونسي مدرسة الرومانسية معها، فاستذكرها اليوم فقط، بعد عشرة أعوام من الزواج عاشها في غيبوبة تقاليده، وعلى ضوء شموعه تلك، سألني برومانسية مُعاصرة.

ـ هل تُؤمنين بالثورات؟

أجبته بخيانة.

ـ الثورة تغيير لا بد منه، أؤمن بها، لكني لا أؤمن ببعض من يثورون؟

ـ لم افهم، لماذا؟

ـ أولئك الذين يثورون ضد الحكومات، لو نُصبوا بمقامات الدولة هل سيكونون أوفياء؟

بعد ذلك السؤال الماكر، وقد أخفى إجابته في ثعلبة ملامحه، ممزوجةً بدهاء إجابتي، حتى رمي بالمذياع جانباً، بأعلى سخطه،

واقترب مني مهدداً، ومسك بيده الأخرى شمعة، وأسقط نظر عينيه علي خلسةً، ليرى خوفي المتوقع من انهزامه أمامي.

ـ أتعلمين لا أظنُ بأني أكرهُ الجلوس معك، لأنك تتفلسفين بشكلٍ يثير غضبي، ويستفز جوارحي فحسب؟

ـ بل أظن بأني بدأت ببغضك.

فجأة حضرت الكهرباء وحضر معها مقامي، الذي أصبح بهاوية المذلة، بعد أن أفصح عن كرهه لي وقد أراق ماء وجهي بملامح وسامته التي أحببت.

فلسفتي الدائمة معه، هي مفتاحي الثمين لكرامتي، التي تسقط مني يوما بعد يوم، أمام محاولته لإثبات ذكوريته، لا أدري إن كان حقاً يكن لي شيئاً من الحب أم كنت واهمة؟ لكني مازلت أحبه، لهذا ابرر له كل أفعاله التي لا تطاق، وأعرف الناس عليه بزوجي الوسيم.

وبعد هذا العمر أيقنت بأن من يحبك، سيبقى يودُك حتى النهاية، دون مبررات، ولا حتى شروط، من يحبك لن يعاتبك حتى لو فرشت له الأرض رملاً وشوكا بدل الورود، وسيتوهم الياسمين.

ومن يبغضك سيرى عيوبك قبل حسناتك، وسيعاتبك قبل أن يدرك أحوالك، وسيصطاد حروفك في شبكة ظنونه العاطلة، ليثبت لنفسه قذارتك التي يتوهم، لهذا لا تنتظر من اللئيم سوى اللؤم، من

الطيب سوى الطيبة، الحياة سهلة المعرفة، والناس نوايا، وجميعنا مرضى ظناً بنوايا الآخرين."

ذات يوم وبينما كنت أجهز أطفالي احمد ومحمد للذهاب إلى مدارسهم، كنت قد استعجلت كثيرا، خوفا من أن تفوتهم الحافلة، ولأن حسام قد خرج قبلهم كان يصعب علي أن احمل ناصر والحق مُسرعة بحافلة المدرسة، ناصر لا يساعدني لكي تكون الحياة معه سهلة كباقي أخوته، هو بحاجة كاملة لي، وأحياناً اشعر بأنه لا يسمعني ولا يراني، لم أفكر بالسبب كثيرا حتى الآن.

حين خرجوا وفتحت الباب وجدت كرتا مزينا، واضح بأنه كرت دعوى لحضور حفل زفاف.

أخذته وفتحته فوراً، لم يكن حينها فضولي لقراءة تلك الدعوى قابل للصبر، وأثناء ذلك سمعت صراخ ناصر، لم اعره الاهتمام، فهو دائم الصراخ، يزعجني كثيرا ويسلب مني طاقتي باستمرار، وخاصة في الصباح، لهذا دائماً ما أتركه يصرخ، مبررة لنفسي تجاهله كثرة مسؤولياتي، في بعض الأحيان اشعر بذنب تجاهه، وأحياناً أشعر بالانتصار، لكوني لم ارضخ لصراخه وحركاته غير المحببة بالنسبة لي، أعلمُ تماما بأني لحظتها، قد فقدت إحساس الأمومة تجاهه.

حين فتحت بطاقة الدعوى لصديقتي، اكتشفت بأنه الزواج الثاني لها، بعد أن خلعت الأول، لأنه لا ينجب، شعرت بكم هائل من الفخر تجاهها، ابنة شعبتي التي رافقتني لعدة أعوام دراسية، وقد جمعتنا أمتع الذكريات، ولأنها قد تحدت التقاليد والمجتمع الذكوري، وقد استطاعت أن تتخلى عن زوجها، لتعلن حرب على العبودية، أدركت بان النساء يختلفن حتى في الكرامة!

وضعته جانباً بعد أن حفظت يوم الزفاف، والساعة وحتى الشروط، بعدم اصطحاب الأطفال.

لحظتها فرحت كثيرا كون الحفلة مختلطة رجالاً ونساء، ذلك يعني بأن حسام سيرافقني، لم نكن نخرج سوياً عادةً، حتى على السوق كنا ننفرد بالشراء والتبذير، احتاج بشغف لمرافقته، أحِنُ لرُؤيتهِ خارج البيت، في حفلة، مطعم، طائرة، جزيرة، أشتاق لرؤيته كرجل عشقه قلبي، وليس كزوج تقلدت به حياتي!

كنت قد أخبرته يوما بأني أحب الحفلات كثيراً، وخاصة حفلات الزفاف، فضحك وقال.

ـ أنتي تحبين أن تتشمتين بالعروس لأنها ستسجن.

لا أعلم لما فكر بي على هذا النحو؟ لا أدري حتى إن كان صادقاً باتهامه ذاك أم كاذباً! جعل تفكيري يخوض صراعاً في نفسي. وكل ما أعلمه بأني فعلا أحب الحفلات كما كانت تفعل أمي.

"أصدق ما ترثه الابنة من أمها بكونها مثالا مصغراً من طقوسها وعاداتها، حتى حروفها الساخطة على بيتها، التي كانت تعترض عليها ابنتها، تستخدمها بكل حرفية بعد زواجها، و تعود لتعمل بتلك الطقوس، التي اكتسبتها من أمها في خلايا عقلها الباطنية دون إرادتها، لتصبح نسخة عنها!"

حين عاد حسام من مكتبه الهندسي، كان يبدو على جسده التعب و في ملامحه شيء من علامات السخط كعادته، وكأنه يذهب ليهندس غضبه على وجهه ويأتي بها هنا ليهدينا إياها، وذلك ما دعاه إلى أن يصرخ في وجه أولاده، مسقطاً انجازاته عليهم بدل البدء بالسلام، ثم غادر المكان، أدرت وجهي جاحدة لتعبه ثم سألت ابني أحمد عن سبب غضب والده، فما كان منه إلا أن يتدرج نحوي و يبكي في حضني، كان دفء حضني لحظتها كافياً بأن يهدئه، حتى خرج محمد من حجرته وفورا اقترب مني وهو يحدق بي بسخط فاعتراني خوف الشعور بالذنب من أجله، حتى أوقعت أخيه أحمد من حضني دون إدراك، هرباً من اتهاماته، وأخذت محمد في حضني بدلاً منه.

فما كان مني إلا أن ابرر فعلتي على الفور.

ـ حبيبي، أنا أمه أيضا فمن الطبيعي أن احتضنه.

ترك حضني الذي احتكره بأنانيته، وحدق في عيني كما الذئب، وأسقط علي وابل حروفه بافتراس .

ـ أنا أولاً، لأني الأصغر.

كان لجوابه هذا أثراً كبيراً و نكزه لقلبي التائه، وعقلـي الضـائع عن العدل بين الأبناء كأم، و جعلني في ذهول، حتى أجبته.

ـ ناصر الأصغر وليس أنت.

صرخ في وجهي.

ـ ناصر غريب، وليس مثلنا.

ثم أكمل بفصاحة .

ـ الم تلاحظي بأنه يحب الوحدة، دائما ما نجـده في حجرتـه ولا يختلط بنـا ولا يلعـب معنـا، انـه يبكـي و يصـرخ، حتـى انـه يلعـب بالمكعبات بطريقة غريبة.

لم أفهم لما كل هذه الملاحظات على ناصـر، اتهامـات صـادقة، أراها بعيني الظالمتين لناصر، وأتحسسها بحدسي الخائن لمشاعر الأمومة الدائمة النكران لها، ربما خوفاً عليه، أو خوفاً عليّ! هربت من كلماته تلك، وتهت في طريق ذكائي المزور ولجأت للحديث و نفسـي مـبررة بعدي عنه ومسؤوليتي اتجاهه.

ـ ناصر يتصرف وفقاً لعمره.

كان همي أن ابرر فعلتي، أمام مـن يطلـب الاهتمـام، بلسـانه ودون خوف، لا ممن يصمت رغم حاجته.

ـ هل سامحتني؟

نظر إلي وهز برأسه متقززاً، حينها شعرت بأنه قد خُذِل كثيراً، وشعرت بجرمي أمام سلطته، طالبة منه العفو عني.

حتى نطق أحمد بقول:

ـ لم يصرخ أبي منا من فراغ، نحن أرهقناه حين أحضرنا من المدرسة، كنا نريد أن نشاركه في قيادة السيارة هذا كل شيء. قال ذلك ثم ذهب.

يومها كان أحمد ابني البكر قد لقنني درساً قوياً في عمق العلاقات وتبادل الاتهامات.

"أحياناً نتوه في علاقاتنا مع الآخرين بضياع، كما لو تتنقل أنامل عازف الكمان، الذي يؤدي أمتع الاهتزازات على مسمع جيش ينوي خوض الحرب بعد دقائق، فلا فائدة من سماع العزف، ولا أثر للسلام!"

ليلتها وقبل أن أغفو بدقائق، قد جادلني زوجي، لنفس السبب، دائما ما يجادلني قبل النوم، قبل الأكل، وأحيانا قبل الخروج، حتى أصبح جداله بالنسبة لي، جُرُعات يشتريها قبل دخوله البيت، ليحقنها في قلبي المرهف، مخدراً بها إحساسه بالضعف نحوي، ليشعر بنشوة انفراد وقوة سيطرته علي.

كثيرا ما يُسمعني بأنني غير عادلة، وبأني كثيرة الانشغال، وبأن همي الوحيد هوا لانتصار عليه، بحديثي اللاذع، أكثر من الاهتمام

بمتطلباته هو وأبنائه، وقتها لم أكن قادرة بما يكفي على الرد عليه كما السابق، كان عقلي قد تشوش بما يكفي، بما قاله محمد عن أخيه ناصر، حتى انه ضجر من صمتي وقلة إجاباتي، و أدار لي ظهره، بعد إن اكتفى بالجرعات التي أعطاني إياها، دون ردات مفتعلة مني، وقد طهرها بقول.

ـ أحلام سعيدة حياتي.

انتهى الجدال الذي تشكل على هيئة حرب من طرف واحد، أشعرتني بانهزامات مقصودة، مع الحفاظ على قدسية العلاقة، بمفردات باردة، رغم عمق معانيها، لكنها باتت سهلة، و على أطراف اللسان بحروفها، حياتي، روحي، قلبي، بعد كل جدال و اختلاف نقولها لا شعورياً، لعلنا بهذه الكلمات المرتبطة مصلحةً بإبقاء ما كتبناه أمام المأذون، لنُبقي مملكتنا التقليدية قائمة على أطلال ادعاءات الحب!

الآن بِتُ أعرفُ تماماً بأنه رجلٌ ثائر بامتياز، يحب الاستعاضة والتبديل، ويضجر من الروتين، شغوف بالاختلاف السطحي، ولا يصبر على هَم، شعرتُ بأنه قد بدأ تدريجيا بالهبوط عند منحدر خلاص زواجنا، لكثرة تذمره، لقد أصبح يتأفف مني سُئماً، حتى باتت عادته اليومية، وحَزِرت في نجواي باقترابِ ثورة، وربما انقلاب،

فهما وجهين لعملةٍ واحدة، وستكون ضد حكومةِ مملكته هذه، على هيئة هجران، نُكران أو حتى طلاق، فالحياة لا تهبنا الأمان غالباً.

لحظتها زُرع في عقلي صراعٍ آخر، أخافني أضعافَ مخاوفي من وخيم ابني ناصر، أو ربما كلاهما وضعوني في حجرة رعب وأقفلوا باب الخروج، والأجدر هو من سيفوزُ بهلاكي.

في منتصف ليلة ارتياع قلبي بامتياز، ارتفعت حرارتي قليلاً، شعرت بكل ما جَد في جسمي حينها، رجفة مؤلمة وجافة، كابوس أصاب ذهني، ولم أدرك أن كنت بحلم أم يقظة، لكني تنبهت لحظة و همستُ باسم ناصر، مراراً وتكراراً، أفقت من نومي مذهولة، وتركت فراشي على عجلة، و هرولتُ إلى مضجعه بخفة، كانت الساعة تميل إلى الثانية بعد منتصف الليل، لقد شاهدت عقاربها وقد ارتفع صوت دقاتها في مسمعي، وذلك أثناء مروري بالممر الذي يفصلني عن غرفة الأولاد، وكأن قلبي يدق معهاً بتسارع نبضاته، معلنا غربتي التي طالت عن ابني ناصر جاهلة ما به، لا اعلم عنه شيئا سوى اسمه، وعمره، وموعد نومه.

على مهل فتحت باب حجرته، ومشيت نحوه بارتياب، وعلى سريره جلستُ بتأنٍ وتحَنُن، أبصرتهُ بحذر، وكأنه ملاكٌ شارد من العالم الآثم الضال والكاذب إلى عالم الاستقامة والصلاح والطُهر، نور براءته طغت على ظلام المكان، حتى أنارها وجهه المُشرق، بحثت

عنه في سبيل إعادته أليَّ، إلى أمه التي تكبدت شهورا حتى وضعته كرها، كان إحساسي اتجاهه لحظتها خارق، غامض، مُخالف، لا يشبهني ولا يشبهُ دلال، دام تحديقي به طويلاً، إلى حين عودته إلى قلبي، لمست جبينه الصغير، بيدي التي لزمت الارتعاش طوال تلك الليلة، شعرت بحرارتي قد عبرت إلى جسده محبةً، شعرت بقلبي اخترق نبضاته قرباً، دون أن يفارقني شعور الذنب بتجاهلي له، وسقوط كياني وإنسانيتي وحدودي وثقافتي أمام براءته، نمت بجانبه، واحتضنته من جديد، وبكيت ليلتها بحرقة، وكأن سكونه جَمرة تشعلها أنفاسه العليلة، فيتأجج لهيبها في قلبي أساً وندماً، وتارةً يفيق ويدوي بصوته عالياً وكأنه يعارك في حربه هاجساً بالخسارة، وتارةً يحضنني باستحكام لأفيق.

تساءلت باكية بخجل.

ـ أكلُ هذا يحصلُ لك، بينما أنا لاهية بجدال والدك؟

"غالباً ما ننسى أولويات حياتنا، وجلل مطالبنا وعظائم أمورنا، ضائعين في سبيل عناد ما لا نرغب، واثبات الذات، بينما حقيقتنا ضائعة، تنازع الموت بجهلها!"

صباحاً حَضَرتُ الإفطار على استعجال، وقمت بواجبي تجاه كل فردٍ منهم، كانوا صامتين، وحتى قليلو الحديث، مُندهشين وجوماً، بسبب التحول الذي طرأ مني اتجاه أخيهم ناصر، لكن ذلك

الصمت الغاضب لم يدم كثيراً، بينما كنت أضم ناصر بين يدي بصبوة وحنين وتلهف.

سأل حسام.

ـ أرى بأن المرأة الحديدية، قابلة لأن تلينَ لُطفاً!

تنفست شاهقة قهري بزفير الأم المضحية، وكنت قد عاهدت نفسي قبيل لحظات بأن أحافظ على صمتي أمام حروفه المنقطة بالحماقة والبلاهة والخداع، إلا أن الطبع يغلب التطبع، بتروي حذر أجبته.

ـ لأن المرأة لها قلبُ حي، ينبض رحمة، فهي لينة.

التوى فمه هُزأة، وتأمل سقف المكان هارباً، وضحك ساخراً وقال.

ـ لو النساء يملكون قلوب الرجال، لكنا جميعنا بخير.

نظر احمد إليه، وقال.

ـ أبي لم دائما تناقش أمي مستهزئا؟

رفعت حاجبي منبهرة من سؤاله اليقظ والفطن، أضمرت خوفاً عليه من أبيه.

إلا أن الأخر، هَزَأهُ بردٍ راجم.

ـ لأنك ملعون.

وسرعان ما بدلتُ الحديث معهُ، خوفاً على اللحظة من الضياع، كغيرها من قريناتها.

ـ حسام، احتاج لكيسين من المكرونة لهذا اليوم.

نظر إلي محمد بخيبة.

ـ أمي الم أطلب منك أن تعدي لنا طبق السمك المشوي، هل ترفضين طلبي أنا؟

قالها بتمرد امتزج بدهشة أنانيته التي نميتها أنا بزوال إنصافي، كانت أمي تقول لي ابنك على ما ربيتيه، وزوجك على ما عودتيه، وكأنها بتلك الكلمات تقذف بجميع خطايا الرجال من المرأة إلى المرأة نفسها!

بثبات وانجزاع، وكأني مرتدة عن عادتي منقلبة ضد شعي، مقررة البقاء على وعدي بالثبات و صادقة مع قسمي بالهدوء، وجهت جل نظري واهتمامي إلى ناصر، ناسية مُتناسية سالف عصري الهائج والمنحاز، بيد أن ناصر كان في عالم آخر لا يشبهنا، كانت عيناه سحيقتين، شاردتين، ويداه أحياناً تثور حول جسمه كمروحة تعمدت الدوران لتهُبَ ريح من حولها انجذاباً واهتماماً، مستحضراً الأنظار التائه نحوه ليقول بأن الوجود ليس بالكلام والاتصال، تواصلي يكون بالتكرار والتتابع والتعاقب، معلناً وجوده،

بلغته الفريدة، شارد، ساهي وغافل الذهن، جاهل الإدراك الحاضر و الغائب، تائهاً في عالم مجهول، لكنه كان "ناصر" غير المهزوم.

عاودت النظر الى محمد وأجبته بثقة متمردة، ونظرة شاذة.

ـ سأحضر اليوم طبقا يحبه ناصر حبيبي.

تبادلوا جميعهم نظرات الدهشة الأولى، التي تليق بتغير جذري في منهاج أمومتي، وفي لحظة سريعة الزوال غادروا البيت، وكل واحد منهم يحمل في قلبه عبئاً مني ومن المملكة التي لا ندري متى ستزدهر بعدها.

تذكرت بعدها نسياني، بإخبار حسام عن كرت الدعوى، الذي وصلني البارحة، مستذكرة وقتي الذي لم يسمح لذكر شيء بخلاف خلافاتنا، وبأني غيرت اهتماماتي السابقة، مضحيةً بها من اجل الالتفات لناصر، وكأن حياتي أصبحت على محك التغيير و الإصلاح.

قررت يومها أن أترك التنظيف، والتجميل، والتبذير، حتى الهاتف أغلقته، نويتُ أن أبحث عن ناصر، أن ادخل إلى عالمه، أن أتحرى كما يتحرى الضابط عن المجرم، وهو يعلم مسبقاً ببراءته، لكن لا بد من الأدلة، أردت أن أنبشَ خلفه بعد أن استكانَ مني، في كل دقيقة من البحث أصابتني طلقات الصدمة من كل ما رأيته وسمعته يومها، لقد عجزت تماماً للوصول إليه، حين كنت أناديه باسمه

وبوضوح، كان يسمعني، كنت اشعر بهذا، لكن دون ردٍ منه، حاولت أن أتواصل معه باليد والعين وحتى الأحاديث الطفولية الفاتنة، المُلحنة ببراءة ضاحكة ببساطة، باسطة ذراعي ولاهية باهتمام وماجنة، ولكن دون فائدة!

حاولت إطعامه لكنه فضل أن يحدق بالطبق، بدلا من تذوقه كان يصرخ بتألم حين يلمسه شيء من حرارة الطعام، إلا أن برد كبرودته اتجاهي، وبضع اللقيمات التي تناولها لم يمضغها جيدا بل بلعها بلعا، وكأن تركيزه غائب، وروحه حائرة بين الواقع والمجهول. بعد الانتهاء من الإفطار، ذهب إلى حيث وضعت زجاجة الماء وأشار بإصبعه نحوها، وبدأ بالصراخ. كثيرا ما كان يقوم بكل هذا، لكني الآن والآن فقط تيقظت لكل شيء، وأدركت بوجود مشكلة، وذلك لأني أعطيته قليل الاهتمام، وأيقنت فيه نقصاً نخر في قلبي أساً، وأصابني بذهولٍ عاق، وبأن ما فيه ليست بغريزة أو عادة.

اليوم أبصرت ناصر، وتقربت منه كما لم يحدث، في كل مرة احاول أن أجالسهُ، كان يهرب مني إلى مكعباته المُلونة وعلى الفور دون استئذان شفقتي عليه، ودون تردد أسامحه عليه، دون إعطائي فرصة الاستحواذ، أو حتى القيادة، دون تبريرٍ مسبق بمشاعري التي تموت أمام غيابه، وكأنه طفلٌ آلي مبرمج بتصرفاته، منعزلاً ومكعباته على الدوام دون ملل أو كلل، لحقت به مُستنجدة و اقتربت منه

متذمرة، صرخت بوجهه بحروف صاخبة اللعنة، رد علي محدقا بسقف الغرفة كان ذلك الرد منه صفعة قوية، قد أردتني ذبيحة، وقد تحول لظالم وبت مظلومة، في دولة زائفة يحكمها المجهول، لقد سبق و نبهني احمد، وحاول أن يلفت أنظاري إلى أخيه، لكن وقتها كنت أعانق أفكار الخلاف والمجادلة مع زوجي حسام، كنت مشغولة باحتضان جلسات النميمة والمقارنةُ مع صديقاتي والثرثرة وجاراتي، منشغلة بعالم الثياب والموضة، والتنظيف والولائم الكاذبة، كنت دلال المتمردة على سعادتها، ولم أكن دلال الراضخة لحقيقتها!

قررت يومها أن أتحدى ماضينا المغشوش، وأتحدى ذاتي المُشَوَهة، وحسام الثائر، ومحمد الاستغلالي، و أمي خوفا من شماتتها، وقررت أخذه وعلى الفور إلى طبيب الأطفال، ظننت أنه مصاب بالحمى، أو حتى مرض لم أدركه بعد، فكرت بأنه خوفا قد أصاب قلبه الصغير، فتلعثم لسانه، فبحثت عن(كوب الرعبة) في أمان قلبي، وتشتت عقلي، لم أهدأ لأتريث بتفكيري، وكأني استيقظت فجأة من سبات النسوة، الذي كنت فيه، حتى بتُ أم ثكله!

اخترت له أجمل الثياب، وألبسته قميصاً باللون الأحمر لأنه يحبه وبتطرف، وهو في عمر السنة والنصف، كان يختار كل شيء يحمل ذات اللون، لكن من فترة لم يعد يهتم، لهذا اهتممت أنا، عطرته بعطر الأطفال، الذي اشتريته لمحمد منذ شهر تقريبا، حين كنا لوحدنا

نتسوق ونبتاع، ووعدته لحظتها أن لا يشاركه بها أحد، لكني أخلفتُ وعدي الآن، وأصاب قلبي تناقضات، لعلي بذلك النقض أقابل اعتذاري بذنبي تجاه ناصر، بخلافٍ عظيم مع محمد، أصابني خلل واضطراب، لقد جَهلت نفسي حينها، لم أكن من بين الفئة اللواتي يفضلن الكذب على الحقيقة في الحياة، والغش على العدل، والغيرة على التواضع، لأرسو ومصلحتي على بر الأمان المزيف، كانت مبادئي الجميلة تحوي بداخلها أنثى متمردة، لم أكن كاملة السوء، ولا كاملة المحاسن، لهذا أنبني ضميري حين وضعت له من عطر أخيه، حتى لو كان الذنب صغير.

"حجم الضمير هو الميزان، وهو الرادع وليس حجم الذنب!"

كنت في غاية الفخر لكوني أصبحت مهتمةً. وبينما كنت داخل حجرتي أجهز نفسي، هاتفتُ صديقتي وطلبت منها عنوان طبيب الأطفال، الذي أخبرتني عنه يوماً بأنه داهية، ويعرف وجع كل الأطفال المرضى على الفور، وبأنه دائماً ما يوصف دواء شبه موحد، لجميع الأطفال، حبوب مضاد حيوي، لكنها أشبه بالمعجزة، لم يدخل راسي كلامها قناعةً، إلا أنني لجأت إليها يئساً وقالت لي أيضاً بأنها سبق واصطحبت طفلها مؤيد إليه قبل حوالي الشهر، بعد أن اعتلتهُ الحمى، وقد شُفي على الفور، حديثها هذا شحن طاقتي تفاؤلا، حتى حين بتُ جاهزة للخروج توجهت باندفاع غير مسبوق إلى غرفة

المعيشة، ارتفع نظري حيث التلفاز الذي علق على الحائط، وفوقه صورتنا العائلية و لوحة لآية الكرسي حدقت بكل تلك الأشياء مرة واحدة، ثم سقط نظري على الارض، فوجدت ناصر يحدق بالتلفاز بتفحص مخيف، وقد أمعن النظر إليه، حتى اختفى كيانه أسفل قعر هذا الجهاز، وقد غاص فيه بعمق وتهور، ما كان مني إلا أن أسعفه بإقفاله على عجلة، وكثيراً من الغيظ.

أتذكر يومها صباحا فتحته لكي استمع إلى الأخبار كعادتي، رغم علمي بأن هذا العمل من شانه أن يرفع هرمون التشاؤم في دمي، لكن الأهم من ذلك تنبهت بأن ناصر يطالع التلفاز بشكلٍ شغوف، وقد أصاب قلبه حباً وفتنة، في داخلي شعرت بالنقص، وتقبيح للذات وتوبيخها، شعرت برذالة الأمومة التي أتصف بها، شعرت بتأنيب وتثريب الذات، لكوني دائماً ما أضعه أمام التلفاز

دون مراقبة، لكي ينشغل عني فراراً، لكي انفرد ونفسي ومشاغلي، لكن اليوم فقط أدركت تلك اللعنة!

أقفلت التلفاز وجلستُ على الأرض و ركعت أمامه بجزع.

ـ ناصر حبيبي هل تسمعني؟

ظل محدقاً بالتلفاز، رغم خموده وسكونه، حملته وحضنته، حتى كدت أن اكسر عظامه، قسوتُ عليه بحضني بإلحاح، محاولة للوصول إليه.

صرخت مرة أخرى.

ـ ناصر حبيبي هل تسمعني؟

حينها أضعت نفسي مرة أخرى، أمام هروبه الذي لا يحمل برهان، ولا حجة ولا حتى ذريعة تبرره، كل تلك السلوكيات دفعتني بإقدام ومضي، نحو الطبيب، وقد جاءني وسواس يحدثني انه قد أصيب بمرض (السحايا)، ذلك المرض الذي أخبرتني أمي عنه يوماً، وفي كل مرة تذكره كانت تحذرني من خطورته، وقد حذرتني منه قائلة:

ـ بأن من بين أعراضه الحمى والصداع، وسببه فيروس، ويمكن أن يهدد حياة الأطفال.

كلماتها حول هذا المرض وسوست لنفسي بلا جدوى ولا طائل، وعلمت بان الأعراض لا تشبه حاله، لكني تمسكت به لعل عقلي يرتاح، من اختلاط الأصوات بجوفي حيرةً، حملته بين ذراعي وغادرت بحيرة وتلجلج، اصطحبتهُ بألم إلى عيادة الطبيب.

حين وصلت الى العيادة، كانت قاعة المنتظرين مليئة بالمرضى، لم يكن ناصر الطفل الوحيد المعتل، ولم أكن أنا الأم الوحيدة التي أصابها الإرهاق والشقاء، ولم أكن أنا المرأة الفريدة المُكبدة بابنها، حين رأيت ذلك العدد الهائل من الأطفال المرضى، أحسست بأن كل أطفال العالم مرضى، أحسست حينها بأن الخارج خالٍ من الأطفال

الأصحاء، و بأن الإنسان منذ صغره محكوم بالمرض، كما هو محكوم بالموت عند هرمه!

لم يكن الانتظار مع ناصر حينها بالسهل، شعرت بأن ناصر سريع الغضب، والضجر، وقد اختنق من أزمة المكان وضجيجه بسرعة، أصابه اضطراب ورفض، كل ما هو حوله، من ناس وأصوات كان يصرخ كلما سمع صوت قريب منه، واضعاً يديه على أذنيه، محاولاً طمس وحجب الصخب الذي يدق في مسمعه، و كأنه ارتاد حفلة موسيقية صاخبة، مضرجة بالصياح والعويل و والاهتزاز، كان بعيداً تماماً عن مصدر النغمة الحقيقية، وكأنه لا يسمع ذات الصوت الذي أسمعه، كان يصرخ بشكلٍ متكرر، يُزعج كل من يسمعه ويراه، لقد شعرت بالخجل وشيء من الخزي، من تصرفاته الغريبة وأطواره الوحيدة، والمخالفة لبقية الأطفال، كأنه أضل طريقنا جميعاً، التفت الجميع لسلوكه الغير محبوب، وأكثر ما أودعني حينها، بأن الأطفال المرضى الآخرين لم يتصرفوا كما يتصرف ناصر، كان منفرداً بكل شيء، ذلك أنبت في قلبي شوكة قارصة، جعلتني خالية الوجود والإحساس، كنت اجلس أمام طاولة الضيافة مباشرة، أحتضن ناصر بقوة، بينما هو يصارعني هرباً، وقد مزج ذلك في شرودي وغمي على ولدي، حتى ذهبت بتفكيري في زوجي حسام أسىً، لعل قلبي يكتفي وجعاً، فجأة عطست بصوت قوي اهتز منها

الحاضرون، فتحت حقيبتي لكي أخرج مناديلي لكي امسح بها أنفي، فاكتشفت، باني لم أجلب معي هاتفي النقال، لفيضان بحر انشغالاتي بناصر، فأخذت علبة المناديل الموضوعة على الطاولة أمامي، وقمت بالمطلوب، وعلى الفور التفت ناصر إلى تصرفي ذاك على غيرِ عادته، وترك حضني وتقدم نحو الطاولة، واخرج مجموعة من المناديل البيضاء بيده، وجلس على الأرض أمامي، كان أحادي المكان، وفريد الطباع، ومنعزل الناس، حتى بات يقطعها بيديه الصغيرتين بالتساوي، وأصبحت تتناثر على الأرض من يديه، كبلورات الثلج الأبيض، تهندست معه بإتقان، بأشكالها المتساوية، دون خطأ مكشوف، وكأنه رسمها بنبضات قلبه الأبيض و دون خبرة مسبقة منه، وقد أحاطته بفتاتها الصغيرة جدا، وشكل وإياها لوحة فريدة، لازمتُ مراقبته بعجبٍ وذهول، متناسية وجودي بمكان عام، يلزم علي احترامه، وبعد حين سلبت مني سكرتيرة الطبيب فجأة ذلك الشرود في مراقبة صغيري، بعد إن نطقت بكلمات ثخينة، جائرة جافة من الإنسانية. قائلة:

ـ ماذا تفعل يا غبي لقد وسخت المكان.

استفزني كلامها، وأرهقني قهرا، حين وصفتهُ بالغبي وأغضبتني لحد الثوران، حتى كدت أن أبصق في وجهها، لكن حدود الاحترام، لكل من هم حولي حصنها، أغمضت عيني بغضب، لعلي أطفأ ذلك

الغليان الذي انتابني، حملته بين ذراعي مشفقة، وقبلته على جبينه انتصاراً له، أنجدتني إحداهن بتنظيف المكان، حين انتهينا نظرت إليها شاكرة وهمست لها.

ـ آسفة.

ثم عاودت النظر إلى السكرتيرة مرة أخرى وقد عليت صوتي بقول.

ـ آسفة؟

ردت علي بابتسامة صفراء بغيضة. حينها شعرت بكرهي لنفسي، نادمة على ذلك الاعتذار، الذي صدر مني اتجاه إنسانة لا تحمل من صفاتها إلا الحروف الست، و قد فرقتها عن حروف البهائم قدراً!

لم يرتكب ناصر ذنبا، يستحق ذلك البغض البشري، وتلك الكلمة التي تزرع في نفسه طريقاً نحو الخلف دون ذنب.

'الناس أجناس، هناك جنس من البشر لا يعرف حدوده مع الآخرين، يبغضون الناس دون مُبرر، ويغارون من عزيز من غير عذر، ويصفقون لإبليس دجلاً، مبادئ أولئك الناس معدومة، يتصرفون كما لو أنهم يفكرون من جانب الضلال والباطل والنحسِ فقط، دون علم بأن ذلك الجانب الحيواني له حد يجب أن يقفوا عنده، لكي يمنحوا الآخرين السلام، بالشفقة و الخجل والتواضع،

وجبر الخواطر، الرحمة التي ينتهي عندها حب الذات، وسوء النفس، وان لم تدركها فأنت قد أضعت طريق الخير، في بلوغ الشر بعد أن وقع منك سهواً جواز الإنسانية!

مجتمعاتنا مليئة بمجرمي المشاعر. مجرمون يحطمون قلوبنا بحروف عفنة وقذرة، قد تجمعت في كلمات قوية اللدغ، تفتك قلوبنا بسمها، و كأنها مبيد لقتل المشاعر، تخترق قلوبنا، وتبقى ألهبتها تحرق أوردتنا كلما استحضرناها، وكأنها أطلقت الآن!

سألتني إحداهن.

ـ ما هي علته؟ هل هو مريض؟

صُدمت بقوة، واهتز قلبي ترسيخاً لسؤالها، وكأن فضولي المجاهه، قد عانق لسانها بسؤاله، واضعاً حيرتي بغموض وغرابة افعاله، بعيداً عن المرض الإكلينيكي، الذي صدقت بأنه قد اعتل به، وادركت بأني أقنعت نفسي بأكاذيب، حين قررت أن أصطحبه لطبيب الحمى والسعال، واكتفيت بقول.

ـ سنرى.

ثم شردت بردي هذا، وسهوت بملامحها، حاضنة ولدي بين يدي اللواتي ترتعش خوفاً عليه، لعلي اخفي ملامح الذنب التي هطلت على وجهي، حتى أجبتها بفضفضة عاجلة، كالخبر السياسي العاجل، الذي تظهره وسائل الإعلام بغتة، مداهمة بذلك سكينتنا.

ـ أنا مقهورة عليه.

كانت امرأة تكبرني بعشرين عام على الأقل، عيونها تحكي حكايات تعيسة هالكة وشقية، شاحبة البشرة، لكن صوتها فيه قوة وثبات، وصبرٍ قديم.

أجابت بأمانة وتوكل.

ـ الحياة سجن، ونحن أسراها المتكبدين.

ثم أكملت.

جميعنا محكومين بالقهر المؤبد، لا نتحرر منه إلا لحظة الموت، هناك من خضع للدنيا فقراً ولجوءا، وآخرين غلبوا على أمرهم بعقمهم، وبمرضهم، و يتمهم، وآخرين مستضعفين ظلما وحربا وتهجيراً.

اقتربت مني، وخضعت رأسها باتجاه ناصر، و قبلته بلهفة، أوجعتني حروفها الصادقة، وتواضعها الحزين، ثم سألتها بتولول، وعيوني تدمع على حالنا.

ـ وما الحل؟

ردت.

ـ القناعة بما أوتيت، والامتثال لأقدار الله، وتقبل الحال، هي مسلمات للمضي قدما، إذا ما تم ضمهن بالصبر والقوة، والدعاء

دوما بالفرج، هذه آداب يجب أن نطبقها في سجننا هذا، وإلا سنكون سجناء مكابدين البأس الذي لا خلاصة منه!

مسحت دموعي عن وجنتي، وحدقت بها أكثر، و شعرت بالجزع وقد أدنتها على الفور بسؤالي

ـ أهذا درسٌ باليأس؟

ردت بيقين ودراية وشيء من الموعظة.

ـ بل درسٌ بالصبر.

في سريرتي، شعرت بأني أحاور قعر نفسي، وأحاكي ملاكاً خارقاً، مُبصر النظرة، قد أرسله الله لي؛ ليضعني على باب الصبر، قبل دخول الجزع، و بأن امرأة دخيلة قد شاءت الأقدار، بأن تسلمني مفتاح الحياة الوعرة، التي سمعتُ عنها يوماً، عندما كنتُ صغيرة ضئيلة الخبرة، وها أنا قد أصبحت هرمة، و بإمكان قلبي أن يتسع لكل كبد الحياة، حينها فقط أدركت بأني أسقط من حافة الهلاك على ارض الصبر.

أحتدَ فضولي بعد أن تطفلت على وساوسي.

وسألتها:

ـ لم أنتِ هنا؟ اعذريني، فهذه عيادة أطفال.

تنهدت ألماً وحسرةً قبيل الرد، وأخبرتني بأنها جاءت إلى هنا لتاخذ رقم أخيه الطبيب النفسي وعنوانه، الذي يعمل في عيادة قريبة

من عيادة أخيه، وبأنها مصرة على أن تأخذ توقيع طبيب الأطفال، لكي تضمن أمانة الآخر في علاجها بإخلاص.

بسخرية سألتها:

ـ وهل في الطب واسطة؟

ردت بخبرة.

ـ لا تثقي بأحد، قبل أن تطمأني بتجربته، لهذا أجزمتُ مسبقاً، بأن أحصل على وثيقة موقعة بوفاء، قبل أن أغرق في ظلمات الكذب والغش!

ـ واضح بأنك لم تجنِ ثمار الثقة بالبشر، رغم تقدمك بالعمر؟

نظرت إلى ساعتها وضحكت.

ـ الثقة بالبشر والتقدم بالعمر، في تناسب عكسي يا ابنتي.

بقيت أخوض حرب تصفية النفوس، بيني وبين كلماتها، حتى فارقتني لمقابلة الطبيب، حملت ناصر و لحقتُ بها على عجلة، كالضال الذي فقد مُرشِدِهُ.

ومسكت بيدها محاولة مني بأن أتقرب منها حاجةً، وأشتري منها كلماتها بعد أن وقعت فيها صبوةً، بعد إن عرضتها علي و غرست في باطني نبتة الفطنة والحس والاحتراز، اشتهيتُ أن أتذوق من ثمار صبرها قليلا، لعلي أتجشم طعمه عتقا من حيرتي، وفرجًا

لهمي، تطلعت طمعاً في الارتواءِ من ماءِ رصانتها، و تمرسها في الصبر، وحكمتها في عيشتها، فأتشبعُ قُنوطاً.

ـ ألم تهي لي أسمك؟

ـ على الأقل؟

شارفت على طرحه بولع، لكن السكرتيرة نادتها بطريقة وسخة، وكانت "حيونتها" وسيلتها كعادتها، فأشارت لي بإصبعها بأننا سنلتقي قريباً، لمحت لي بهذا الوعد، وكلها ثقة وصدق منقطع النظير، حتى صدقتها تَيَمُناً!

أيقنت حينها بأن بإمكاني تصنيف الناس من باب معاشرتهم بحوار عابر، ذلك التعريف قد ساعدني كثيرا في وضع الناس، تحت مجهر لبيب النظرة، أوصلني إلى طريق النوايا، الذي ضل طريقه لي باعوجاج قلبي.

"هناك ناس يعرفون كيف يحبون الآخر، وبالمقابل هناك ناس لا يعرفون إلا البغضة اتجاه الآخر، فمن استدل الحب لا يعرف للبغضة طريق، ومن نمى البغضة فقد نحتها في جدران قلبه بجدارة، دون أن يكترث، لفطنةً بأن حب الآخرين عبادة!"

حين جلستُ استسلاماً أمام الطبيب برفقة ناصر، كان منغمساً بالنظر إلى يديه وبغسلهما والمنشفة على كتفيه، وسألني، دون أن يلتفت لنا.

ـ ما به؟ أقصد ما هي أعراض مرضه؟

تأملت الطبيب بتحيُر ثم حدقت بناصر بغباوة، جاهلة علته تماماً، عاينته بكافة حواسي راجية منه إسعاف حيرتي وجهلي به، لكن ناصر تخلى عني تماماً، وفضل معاينة سقف الغرفة بدلا من إعانتي، وقد مال على كتفي بتعبه، حتى أضحيتُ أسيرة طبيبٍ غليظ، وطفلٍ مُبهم الأعراض والأمراض، و كأنه طفل يبهم نفسه أمامي، لأبهم نفسي أمام الآخرين، وكأني شبهت عليه ولدي، وقد التبست علي ملامحهُ على غفلةٍ مني، فهدأت وحشةً.

بعد ذلك الصراع العاجل، وضعت يدي على جبينه، لعل حمى قد أصابته الآن فتساندي بالبوح، وتنقذ جهلي بحال ولدي، لكنه كان بارد الجسد وضعيف الاتصال، نظرت إلى عينيه لعله يغمضها وجعًا، لكنها اتسعت تحديقاً فاقتص مني أملي، حتى باتت جل تطلعاتي بالفشل، فلم يكن مني سوى الامتثال .

تقدم نحونا الطبيب الغائب، وجلس أمامي مباشرة، وبيده بشكيرٌ ازرق اللون، نشف به بَلَلَ يديه، وأطراف أصابعه، حدق بي، ثم أحنى رأسه قائلاً.

ـ ما به؟ ما علته؟ هل أصابك البكم؟

كان سؤاله الجارح الذي افترس عواطفي بغلظته، قد ذكرني بحماقة سكرتيرته، التي تجلس خارجاً، خادشة مشاعر الناس بلسانها.

فأجبت بتمتمة غير مسموعة.

ـ وافق شنّ طبقة.

هززت براسي حياءً، لعلي أدرك لحظة حاجتي لطبيب، قد باتت سمعته في شفاء الناس على كل لسان.

ـ ابني سليم ومعافى، ولكن.

قاطعة اعتراضي بنظرة من عينيه و بتهكم، وكان ذلك واضحاً عليه، من إيماءاتِ وجهه فقط، وذلك لأني إنسانة لمّاحة، لا اخطيء الظن، بمجمل الإشارات التي يصدرها الأنيس الصاحب والقرين، سواء بالنظرة أو بحركة العيون أو حتى بكلامه المبطن بالسخرية.

"هناك أشخاص، يعرجون ألسنهم سخرية على الدوام ويخبئون خلف تلك الكلمات الساخرة، والهازئة بغيضة واستحقار لشخصك، فالمزاح حجتهم الوحيدة، لإسقاط غلهم المُكَبَل اتجاهك!

أجاب:

ـ ولم أنتِ هنا إذن؟

ـ ابني يتصرف بشكلٍ غريب جدا، يجعلني في ذهولٍ وعَجَبٍ دائب.

وأخيراً وضع بشكيره الأزرق جانباً، محاولاً أن يدقق ويتدبر أكثر، في كلامي الخلاب.

ـ ماذا تقصدين؟و بماذا يتصرف؟

ـ أشعرُ بأن ولدي ناصر، يعيشُ في عالم آخر مبهم ووحشي.

قام من مكانه، و اقترب من ناصر حتى تساوى به قربةً، و صوب نظره اتجاهه، ليتحقق من كلامي، لحظتها أصيب ناصر بالفزع والرَوَع، وأصبح يصرخ بقوة معترضاً ذلك التدخل المفاجئ من رجلٍ غريب، و لم يهدأ حتى أبعد عنه.

أعطاني ورقة مكتوبٌ عليها، رقم وعنوان عيادة أخيه، واخبرني بأن أخيه طبيب نفسي، يمكن أن يكون هو مقصدي الأنسب، وهو أهلٌ لمثل هذه الحالات، كانت تلك الصدمة الأثقل على قلبي.

في البيت جلست وحيدة مع آلامي الجديدة، جلست على كرسي الهزاز الذي أهوى، ذات مرة أخذت عهدًا بيني وبين نفسي الوديعة، بأن أبتاع واحداً يوماً ما، يريحني في وقت فراغي ويساعدني على التأمل، كنت قد رأيت هذه الوضعية في فيلم أجني، شاهدته أنا وأمي، لكني لم أكن اعلم حينها بأن جلوسي عليه فيما بعد، سيكون قلقاً وليس رخاء.

"هكذا هي الحياة قد تمنحنا ما حلمنا به، لكن بخصومة الوضعيات تماماً!"

مددت قدمي اليمنى أمامي، وهززت باليسرى، وقد داهمني التعب، وحملت بيدي بطاقة الطبيب النفسي، أطالعها، وعيناي تذرفان دموع الفوضى، واضعة نفسي في خانة الاستضعاف و الإِهانة.

- نهايتي طبيب نفسي.

"في ثقافتنا الفقيرة الوعي واليقظة والاستيعاب، المليئة بالتشوهات والأخطاء حول الطبيب النفسي، وزيارته وكأنها جريمة تهين النفس، فهو كغيره من الأطباء المختصين، بالقلب والجراحة والتخدير، لكنه يعالج النفس المريضة من ضغوطات الحياة، فالوعي والإحاطة والفطنة حول الصحة النفسية مهم جدا، خاصة في عصرنا الحالي الذي أصبح يأخذ منا شبابنا كل يوم تحت مسمى سكتة قلبية، أو دماغية، فتستلزم أن تقصده، حين تشعر بالاضطراب، والبلية، والتشويش أو الاكتئاب، بدلاً من زيارة الدجالين، والسحرة والنصابين، دعونا نرتقي بالعلم، فلا إهانة ولا مذلة ولا احتقار في زيارته!"

يا لا تناقضاتنا نحن، نعيش في نفوسٍ ضالة، وعقول مُتأخرة متحجرة، ومجتمع غريب الأطوار، يشعر بالحياء بالخجل من زيارة

طبيبٍ، حاصل على شهادة جامعية، وعيادة مرخصة، صحيا، وقانونياً، وبالمقابل نغشى بسفاهة وبفجور و بجرأة رجعية لزيارة الدجالة والسحرة!

لم يكن حسام ليلتها مزاجه سوي، إلا أنه كان صفراوي متقلب الألوان، هو ذو خلق و أخلاق متقلبة، ولا يرسو على طبع واحد، خفت على نفسي منه ولم أحدثه إطلاقا، رغم حاجتي الشديدة لحمل العهد معي، والوقوف بجانبي، لعل التكاتف والتضامن والتآزر بيني وبينه يُمهد لنا طريق الفلاح.

حتى أنه لم يسألني سؤاله اليومي.

ـ ماذا فعلتي اليوم؟

ولم يعاتبني بجوابه على ذات السؤال قائلاً:

ـ بالتأكيد لم تفعلي شيئاً، هكذا انتم النساء تبقون في بيوتكم مُعززات في رخاء ونعيم أزواجكن، ترتشفن القهوة على أنغام إرهاق ومشقة الرجل.

تمدد على فراشه وكلفني بغلو قائلاً:

ـ أطفئي النور واسكتي الأولاد.

أجبته بانحلالٍ وتفرق.

ـ سأنام عند ناصر الليلة.

ضحك ساخراً رغم بؤسه.

ـ أخيراً تذكرتي بأن لك طفلٌ يحتاجك.

حسام من معشر الإنس الذين يحاولون مُكافحين بأن لا يخسروا فرصة، أو مُقامرة، أو حتى رهان، لغلب الآخرين، وهو من صنف أولئك الذين يعتبرون، أن القوة والبقاء ستدوم بقهر الأخر القريب، يختالون بأن كسر الآخر هو انتصار أبدي، هؤلاء حتى لو كانوا على فراش لفظ النفس الأخير وينازعون الحياة موتا، فليس بعيدًا عنهم أن يلجموك برداءة قائلين، لن أسامحك رغم طهارتك!

وهناك صنف يفهمك وفقًا لمقياس نيته الوسخة فقط، فتجده يحكم على كلامك وأفعالُكَ بما يتلاءم وظنونه وغايته، فيبغضك باطلاً، حتى لو كنت عفيف الخلق!

ليلتها سكن الليل إلى منتصفه وزاد، تمددت بجانب ناصر وعلى سريره، رغم تأخر الوقت لم ينم ناصر كان قلقا وشاحبا ومضطربا، بَهِتُ به متألمة، أحاكي قلقي:

ـ كيف يمكن لطفلٍ صغير، أن يبقى مُستيقظا طوال الليل؟

ـ بماذا يفكر؟

كل تلك المستجدات البائسة، قد زادتني عزيمة بنجدته، وصلابة بتحمله، وثباتاً على قوتي، لحظتها تذكرت كلام تلك المرأة الدخيلة، عن مواجهة كبد الحياة، فزادتني تجلداً!

بعده عني أشعرني، بأني سأضلُ وأخسره، دون موت دون رحيل، سأفقده بينما هو معي لكنه غائر، طوال الليل كنت أفكر بلحظة التقائي و الطبيب تشجعتُ وتحمست، فأخرجت ورقة وقلم، وجلست أدون كل ما أراه وما رأيته، تنبيها لنفسي من أن أسهو عن إحدى سلوكياته، فتكون سبب ضياعي وضياعه.

أحلامنا التي عمرناها في ذاكرة أدمغتنا منذ أن كنا صغاراً قد كبرت معنا يوماً بعد يوم، حتى بلغت عنان السماء، وحسبنا بأننا سنلمسها تفاؤلًا ويقيناً، وبأن الأحلام ستصبح جزءاً من حياتنا!

لكن الواقع الذي كان مُخبأً في جوف المستقبل، قد فضحها وعراها من الحقيقة على مرأى أعيننا، دون أن يخجل، وأصبحنا نحن وهي غرباء، كلما حاولنا الاقترابِ منها انتزع الواقع سيوفه، وطردها إلى حيث المستحيل، وخبأها في غمده، حتى امتثلنا لمنزلتنا الأكيدة!

صباحاً استيقظتُ على دوي كابوسي وهو يقول.

ـ أولُ من يموتُ فينا هي أحلامنا!

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، بعد كل هذه الهواجس البشعة، ومضيت في طريق عودتي لمملكتي، وقد استبدلت فنجان قهوتي بمهاتفة الطبيب، وحجزتُ موعداً لولدي الساعة الثانية بعد الظهر، رتبت واجباتي مع زوجي في غيابه، تعهداتي مع مملكتي، فروضي اتجاه أبنائي، ومسؤوليتي نحو ناصر، حتى غَفِلتُ عن نفسي،

وآثرت بكل سِعَة، وطاقة منهكة، وكأني آثِمَة في حقي، لكن ذلك الجرم كان قد هوى منذ زمن، حين اتهمني حسام بالأنانية، والمفرطة أيضا!

كان ناصر يجلس أمام التلفاز، وقد حاصرهُ الأخر بصوته، وشيكه بألوانه، وطوقه بجموده، حتى توهمت بأن لا وجود له، وسها الآخر بإفراط عن وجودي، وكأنني في اندثارٍ وزوال، تَرَبُعه على التلفاز يرهبني ويفزعني بشكلٍ سرمدي، كنتُ أعلم بأن هذا سيزيدُ من غيابه، ومرضه الذي لا اعرف له وجهة، لكن الحاجة أحيانا تدفعك لسبلٍ ضيقة!

دائما ما كنت أردد بأن المرأة أقوى من الرجل بأضعافٍ مُضاعفة، الرجل لا يستطيع أن يتحمل أكثر من مسؤولية، لا يستطع بأن يكون مُعيل مباشر لأبنائه، ولا حتى مُتحملاً أمزجة عائلته، غضب شريك الحياة، وفورانه، انفجارا لأطفال و بكائهم في عقر الليل، عواصف البيت وتهذيبها، وسيقف أمام كل هذا عاجزا

على خِلاف المرأة فهي قادرة على أن تُكافح خارج البيت، وداخله وفيه، تتحمل الباكي والشاكي، والعاشق والخائن، وبأن تكون طبيبة الجميع دون منازع.

في طريقي إلى الطبيب النفسي، تاهت بـي السُـبُل، بـين الرضـا والخنوع، شعرت لوهلة شيطانية بأنني مغلوبـة، وبـأن ولـدي مُهـان، ضَمَمتهُ إلى صدري بقوة، طالبة مـن الله أن يُـأتيني بفـيض كـبير مـن الصلابة والجرأة وشيء من المتانة المريرة، حتى أحسست بأن طريقـي هذا، هو امتحان روحي، قد أرسله الله لي ليختبر صـبري وتصـبري وصلابتي، فتغلغلتُ به دون غش وجُحود، لعلي بحمـده أعـبر محـنتي هذه، بفلاح دنيوي واعتلاء أخروي.

دقت ساعة الحقيقة، وقد تراءت على وجهي خطوط الخـوف، ورسخت الفوضى بداخلي، وانطبع العبوس على وجهـي، وتعالـت دقات قلبي، لتتكاثف جميعها وتعلن صرخة تائهة، في وجـه إحـداهن، ذهبت ووقفت أمامها تماماً، بينما كانت تجلس خلف مكتبها، وتحـيط بها مجموعة فتيات، لم أعرف مـن زعيمـة المكـان، أو مـدبرة مواعيـد الطبيب، كن يتسامرن حول هواتفهن دون أن يلتفتن إلي، مستخفات وجودي، شعرت بأنهن قد هـدرن لحظـتي، واجتثثن لهفـتي، ونـزعن قلقي استهتاراً!

سألت بتذمر:

ـ أين الطبيب انه موعدي؟

كنت أتمنى لحظتها أن أختلقَ عائقة بـيني وبيـنهن، لعـلَ لقـائي يتأجل، أو يُلغى، لعل أحداهن تنعق في وجهي وتـدحرني، فيصـيبني

جرح كلماتها وأهرب، وختمت أمنياتي بأمنية أزلية، لو أن حسام شاطرني اللحظة!

خاب ظني بعد أن سمعت إحداهن، بإجلالٍ وتعظيم وبسحر الابتسامة، تقول.

اهدئي، وارتاحي.

ذلك الالتباس، والتوهم، والتخمين، حَوَلَ جنوني إلى هدوء، واستحياء من سوء ظني، وأمات بداخلي الغضب، وكأنها أسعفتني بَلسَماً.

"صدق الرسول حين قال تبسمك في وجه أخيك صدقة، فالبسمة، والبشاشة، والتهليل، يرضخ أمامهن كل غاضب ومنفعل ومخنوق، فهي تقذف في قلب متلقيها استبشار، وتشفي الداء، وتنبتُ في القلب زهرة!"

في هذا المكان الذي لا يُجانس أي مكان، مكان منفرد بقوانينه، وكأنك على موعدٍ مع البوح بأسرارك، و تعرية أفكارك، و الاعتراف بآهاتك، مكان يشبه مخفر الشرطة باختلاف الحصيلة، الأول سيحررك والآخر سيأسرك، حين جلوسك أمام الطبيب، والاستماع إلى مُطارحاته واستفساراته، وشيء من تلميحاته، و كأنك تمثل أمام مُحقق شرطي، أحسستُ عَطفاً بأن ناصر مجرم استدعاه محقق، وأنا الشاهد ة الوحيدة على تُهمه، لكوني منجبته، حين دخلنا إلى غرفته،

كان الطبيب منفسر الملامح، شَجي الصوت ابتسامته لا تهاجر ولا ترتحل، ذلك أوحى لي بالأمن والسلام والكثير من السكون، وبالرغم من خوفي المتواصل إلا أن قلبي طرب على الحان عطفه، وليونة لسانه، وكرم بشاشته، فاطمأننت وازددت ثقة، بأن هذا المكان هو الدواء، بعد أن سألني.

ـ هل مازلتِ قوية؟

ثم أتبعها.

ـ كل ما يقال هنا لا يُفشى ولا يُقال.

أشعرني، بأنه غير ثرثار، ولا مُبذر للأسرار، قد علم خفاء خواطري، قبل أن أذيعها، وبأن الجلف والضعف الذي أمطر قلبي قبل لحظات، قد انسكب بين يديه ليعيده وثاقة وقوة وصبراً!

لم أكن ادري بأن من آداب هذه المهنة، الإصغاء الجيد المتمكن، والإنصات لكل حرفٍ على حدا، مخرجاً كل الأوجاع على أوراقه، منصتاً لكل ما أتلفظ وأذكر و أتفوه، بعد كل إقراراتي حول حالة ناصر، عاد وسألني.

ـ لِمَ لم تبصريه من قبل؟

زفرت بخجل، وتنهدت بعمق، وهززت برأسي نادمة واعترفت:

ـ لقد أهملته عن غير قصد، وكأني هجرت ملاذي وبعد العودة اليه، كأن شيئاً ما قد شتته عني، حتى بت دخيلةً عليه، لقد لفقدت وطني الصغير، ولم بعد لي وطن، بعد أن غدا غامض، شارد ومخالف، دائم التحديق، صارخ ونواح، ويرفض الغرباء، يبقى لوحده وحيدا مُجالساً التلفاز ومنهمكاً به، أو منغمساً بمكعباته، لا يشاطر المكان ولا حتى الزمان، وكأنه أجني المنبت.

دخلت فتاة شقراء على مهل، وجلست أمامي حدقتُ بها التباساً، وقد احتدا شكي، حتى طمأنني.

بعد أن عرفت أنها مساعدتهُ صوفيا، روسية الجنسية عربية المنشأ.

أكملتُ آمنة راجية.

ـ آمل أن أعيد ولدي لكنفي، ويعيدني إلى أكنافه، أرغبُ أن احويه ويحويني، واغمره، كأن شملنا قد ألتم بعد انحلال!

كانت نظراتي تسافر محتاجة، بين الطبيب وصوفيا التي كانت تراقب راقبت ناصر ترصداً، دون أن يرمش لها جفن.

لم يقل لي عند خروجي سوى.

ـ ارجعي بعد يومين ومعكِ فحصين أحدهما للبول، والآخر للدم!

ليلتها وبينما كنا جالسين أنا و الأولاد وحسام، حول التدفئة، نطالع التلفاز، على مسمع أجواء الشتاء، كانت الأجواء بالخارج حينها تشبه الغضب الذي بداخلي، تفِلُ من ألفاظه قطرات رطبة، أثناء شحنه، رغم جمال الأشياء الطبيعية بحد ذاتها، إلا أننا نرى فيها مشاعرنا الحالية، فمثلا لو كنت سعيدة لحظتها، لمزجت قطرات المطر بموسيقتي المفضلة، واستسلمت لسكونها!

لكنني وعلى أصوات الرعد والمطر، كنت شاردة الذهن، أحتضن ناصر بين ذراعيَّ بقوة، تجعله ينفر مني بصراخه، وهيجانه، كان محمد يجلس مقابلي تماماً، يطالعني وكأنني مرتدة عن حبه، كافرة بقربه، ومشركة بوده، كلما بادلته النظرات، كنت اشعر بطعنات سكين تجتاح قلبي ظلماً، لم أكن قادرة على الاعتدال ساعتها كما السابق، حتى لو كان ذلك خيرا لي، فشفقتي الزائدة على حال ناصر، وما حل به بغتة، قد حولني إلى أحادية المشاعر، بالرغم من رغبتي بالوسطية بين أولادي، لم يسألني حسام حتى الساعة إبان الاهتمام الزائد بناصر، لكنه كان لحَاظ، حين التمس عذراً ليحدثني بلوعة.

ـ سنذهب غدا إلى حفلة زواج صديقتك؟!

لم أتقن فهم كلامه كعادتي، إن كان سؤال أو أمر، فقد اختلطت عليَّ مشاعر فهمه، في الفترة الأخيرة، حتى أنني قد تغافلتُ عن الموعد كُربةً.

أما هو فقد أنشغل عن ولده، شاردا نحو نقاهة رسمية سيشبع بها نظراته الذكورية، من مجاورة مجانية لنساء الحفل.

اعترضت.

ـ ناصر مريض، و لا أقوى على التهاون بالذهاب.

أجاب مسيطراً.

ـ انه بخير وسنأخذه معنا، كوني جاهزة، رمى بجهاز التحكم جانبا، وغادر.

كقطرة ماء فاضت من كأس شاربها، تاهت بي الحياة دون اكتراث.

بعد الزواج بذلت كل ما بوسعي وأكثر، تأهبت، قاتلت، كافحت، وكدحت، لأجله، حتى إني قدمت مهري كهدية له بعد زواجنا بيومين، لسداد ديونه العالقة، كعربون محبة، وتأمين مودة ورحمة، وضمان للبقاء، تنازلت وتخليت راجيةً رضاه وقربه بانحطاط، حتى وضعني في أدنى اهتماماته.

أخبرته يوماً بأنني أعشقُ التوليب والدُمى، من باب الاحتياط، إن كان يرغب بإحضار هدية، لاحقاً أحضر لي كل أصناف الطعام، والأدوية، ولم يحضر لي دمية، أو حتى زهرة توليب يابسة، مبرراً ذلك بقول:

ـ انه الزواج!

في ليلة الحفلة ارتديت فستان اسود بسيط، وسرحت شعري بتسريحة بسيطة، خالية من الزينة، ولم أضع المساحيق، وكأن عزاء حزني على ولدي قد حل، وحملت بيدي حقيبة كبيرة، دون أن أبالي لمظهري بين النساء، اللواتي ارتدين القصير والجميل، وبين أحضاني حملت ناصر رفقاً، أما حسام فقد كان مستبد بمشاعره وضياعه، حتى شعرت للحظتها بأني سأكون الأكثر سوءاً والأقل حظاً بين نساء الحفل، فاستذكرت كل عيوب حياتي في مخيلتي التائهة، زوج مهمل طائش، وأبناء عنيدين مُعارضين، وطفلٌ مريض ضائع، حينها وضعت نفسي تحت مجهر المقارنة، وحسبتُ بأني شوكة هذا الحفل.

كان الحفل صاخباً، بالغ الضجيج، مزدحماً بالرجال ونسائهم فقط، بدجل وزندقة، يتبادلون التحيات، وبوقاحة تتمايل بعض الفتيات لتظهرن ما يخبئن من زينتهن، بطيش وسفاهة، ينظر الرجال إليهن، نساء عازبات عن الزواج حظاً، يتمايلن على أنغام الموسيقى الأوروبية و شباب عازف عن الزواج فقراً، يصفقون لهن، وكأن الطرفين على موعد غرامٍ، هذه الطقوس الاحتفالية خلقت في قلب زوجي سرور، وهناء، واهتزازات طرب، حتى صار بحبوح ومبتهج، نادر الملامح.

كنت مضطربة مشوشة، وقد اختلطت علي مظاهر الحفل، بعد أن شعرت بأن ولدي بدأت عليه أعراض الانزعاج من الضجة الحاصلة، وكأنه في حرب يقاوم بهيجان صخبها، أتكهن صراخه بخوف، بين الفينةِ والأخرى، إلا أن جلوس حسام بمحاذاتي لحظتها، أشعرني بشيء من السكينة الثمينة والنادرة، كم تمنيت أن يظلُ هكذا حتى النهاية، تلك الأمنية اللعينة، كانت مرهونة بمناداة صديقٍ له ظلما، فذهب دون أن يلتفت نحوي، وبقيت أنا وغربتي وحيدين.

لقد حظيت أخيرا بفرصة رؤية بعض صديقات الدراسة، سنين طويلة حجبتني عنهن، أصبحنا نلتقي صدفة، وبزهد نتقابل في الأفراح و الأتراح، أو ربما على طرقات دنيانا، فمن الطبيعي أن أبدأ بالسؤال عن الحال، لم نلتقِ منذ أعوام طوال.

ـ كيف حالك سناء؟

كنت انتظر منها على عجلةٍ ومنطق، قول الحمد لله، ذلك الجواب الشافي الكافي المبسط، الذي يختصر حديث الأصدقاء، الذين أبعدتهم السنين بمنطقها، لكن الواقع قد غير الحال والأصدقاء، وقد ردت علي بلهيب يحرق أنفاسها، بعد أن أبسطت شفتاها المغموسة بأحمر الشفاه.

ـ أظمأ لأكون بخير.

كان ردها الصدمة الأولى لي، بعد أن تُهت في ملامح وجهها الجميل، وزينتها الفتانة، وابتسامتها المُغرية.

لماذا؟

أجابت بحزن:

ـ لقد تزوجت منذ عشرة أعوام، ولم أنجب حتى الآن. حَدقت بولدي ناصر باشتهاء، قاطعت نظراتها شفقةً عليها قائلة:

ـ توهمت للوهلة الأولى بأنك من اسعد النساء، فوجهك مازال فاتن وبهي.

ابتسمت لي، ثم ردت باعتزاز.

ـ لو أمعنت النظر لحة، بذلك التشابه بين كلمتين مرآة وامرأة، وتطابق حروفهما، ضمن مفردين متباعدي الاستخدام، لكنهن متقاربات الانعكاس، فالمرأة هي مرآة الرجل، فمن خلال وجهها، تستطيعين أن تري من أنتِ؟

وكأن حياتك معه تعكس رجولته على وجهك، فان كنت صافية جميلة الملامح مريحة النظر، فذلك بسبب هنائك بقربه، أما إن بدا وجهك شاحبا، ذابلا، مهاناً، فذلك برهاناً لسخطه، ودعتني بقول.

ـ مرآة الرجل وجه زوجته!

غادرت صوب زوجها، ولم تلتفت لأحد، أدركت أن حياتها ينقصها الكثير، ولكن حب زوجها واحترامه لها، لم يسمح لذلك النقص بأن يأخذ شروق جمالها.

التفت يميناً ويساراً، حدقت بالجميع و أضعت زوجي بين نساء الحفل، وضاعت آمالي معه ممتزجة بلحظة مجيء فاطمة، كانت متفوقة وحالمة جدا، كانت شديدة الطموح، بان تصبح من ارمق سيدات الأعمال، وأغناهن، كان حلمها ماديا لكن بضمان إيمانها بقدراتها، لكنها لم تبدو كما عاهدتها، وشعرت بأن سنوات الانكسار، والهزيمة، قد أسقطت أحلامها..

بدأت معها بسؤالها:

ـ هل وصلتي إلى أحلامك فاطمة؟

أجابت بقهقهة.

ـ أحلامنا لينة كما حياتنا، فهي تتغير وتتبدل في لحظات باختلاف حاجاتنا، نصل بها إلى الكماليات حين نكتفي من الأساسيات، فنصبح نحلم بعظائم الأمور كالشهرة والثرى الفاحش والسلطة، أما إذا وقعنا في حضيض الفقر، والحرب، ستصبح أحلامنا ممزوجة بمتطلباتنا لكي نبقى أحياء، كأن نحلم برغيف خبزٍ ساخن، وخيمة تؤويك.

ـ أحيانا أكاد أن أيقن جزماً بان الحلم هو فطرة زائدة خُلقت معنا، نستأصلها وللأبد إن خذلتنا الحياة، ونربيها على مهل إن ساندتنا!

اقتربت منها أكثر لعلي أواسيها رأفةً، وقد أشبعتني ضيقا على حالها.

بشفقة جريئة.

ـ هل أنت فقيرة؟

أبصرتني بكبريائها الذي لم تخسره كما أحلامها.

ـ نعم، ولكن لا تغتري بفقري يا صديقتي، فانا بفطرتي أحب البحر وشاطئه، وتناول السمك الطازج في أفخم مطاعم المدينة، ويمكنني السفر والتجوال دون تذمر، لكني أعيش في مخيم وأمامي حاجز، وعلب التونا مونتي.

أكملت:.

ــ أعشق العمل في مجتمعي، واحتفظ بأعماقي بإبداعات عقلي، توشكُ أن تخرج معلنة حياة جديدة لمن حولي، وشغفي للعطاء يفوق شغفي للراتب، وهيامي للخروج صباحاً لعمل شيء، يزيدني حُباً للحياة، يشعرني بنشوة الانفراد، لكن الواسطة وصانعيها قد قمعوا حلمي هذا، حتى كهلت، وكَهُلت معها طاقتي!

أضافت بتنهيدة:

ـ في مخيلتي هناك بيت جميل، قد صممته بحذافير أحلامي و براعتي، و رممتهُ بلذة وجمال، من غير مهندس ورصيد في البنك، وكلما استذكرته أستبشرُ فرحاً، لكن مازال مالك البيت الذي استأجره يستحوذ على حصادي، نهاية الشهر، حينها ادعي ربي بان يبني لي بيتا في الجنة ونخلة.أحلامنا نحن البؤساء من حقنا، ولكنها تائهة عنا حتى موتنا!

أشارت لي بيدها نحو فتاة، لا تتجاوز الخمسة عشرة عاما، وقالت.

ـ هذه الفتاة اعرفها إنها غنية.

ثم أكملت.

ـ أحيانا اشعر بان الغني الذي ولد بعدي بعشرة أعوام أو أكثر، يكبرني قلباً وقالباً، ينضج قبلي، يقود سيارته قبلي، يشتري بيتا قبلي، يسافر قبلي، يتحدث اللغات قبلي، وأموت أنا بقهري قبله!

انطفأتُ مرة أخرى، وكأن الانطفاء يرافقنا على الدوام، وفي كل لحظاتنا السعيدة، والتعيسة، رافضاً المغادرة، أو أن من يشعر بهذا هم الذين يحملون فوق طاقاتهم ثقلاً.

نويت الرحيل ونفسي، مغادرة ساحة الحرب هذه، حتى لا أصادف المزيد من النساء المكدرات، في زمننا التائه، حملت ابني بين يدي، ومشيت بهرولة وكأني في ساحة الهزيمة، أبحث عن قائدي، الذي خان وطنه، وجعلني أسيرة للغرباء، كانت العيون تلاحقني هجانه، خطوت خطوات سريعة، وعيناي تلوذان بحثاً، عن زوجي حسام، لأصطحبه معي إلى حيث خساراتي، فجأة قاطعت خطواتي امرأة أعرفها مسبقاً، للبرهة الأولى تهيأتها رزينة، مغشوشة بهيئتها المحتشمة، وملامحها الصامتة، كانت جالسة طوال الوقت تراقبني بهدوء، فجأة أصبحت عليلة النفس، حين نادتني باسمي صارخة ضاحكة، وقد تحولت إلى مهرج.

ـ حبيبتي دلال.

شعرت بدوران، وبغيتُ الاستفراغ، لكن المكان والزمان كانا ضد إرادتي هذه، إنها زينب، لم أكن أحبها البتة، ولا أحب سماع حديثها، كلما اقتربت مني، شعرت بضوضاء تشحن جسدي طاقةً سلبية، كم تمنيت الهروب.

ـ كيف حالك دلال؟

أجبت على عجلة.

ـ أنا بخير شكرا.

أدرت لها ظهري، وتقدمت خطوة، فأوقفتني بعلو صوتها ثانية:

ـ أنا زينب، ألم تذكريني؟

التفت إليها مجبرة.

ثم أكملت بدهشة.

ـ لديك ولد، لم أحضرته؟ هل أنتِ مجنونة؟ الم تسمعي بأهزوجة ممنوع اصطحاب الأطفال، ليمرحوا الكبار.

بررتُ فعلتي لها بهدوء.

ـ لقد قرأت هذا، لكن ابني مريض.

لم تدعني أكمل حتى، قالت.

ـ نساء آخر زمن.

طالعتها بعبوس واكتفيت الرد.

ثم قالت.

ـ أنا امزح، أنا في راحة، منذ إن تركتيني وأنا على حالي هذا لم اتزوج.

أجبتها.

ـ الله كريم.

ضحكت ساخرة.

ـ لكنني سعيدة صدقيني، أنت تحسديني أليس كذلك؟

رجفتُ منها ذعراً وكأنها تستجوبني، فكلا الإجابتين ستؤذيني، وستحاكمني عليها بوقاحتها، لكنها أنقذتني بحكمتها غير المُحتملة.

وقالت:

ـ لكل منا جانب يحسده الناس عليه، مهما ساء حاله، فمثلا ذلك الإنسان غير المعطاء، الذي لا يبالي بابتسامة ولا بعون للآخرين ولا حتى بواجب، فانه لا يُكسر خيبةً، ولا يندمُ عشماً، ولا يُخذل توقعاً من أحد، ببساطة لأنه لم يعطِ.

لم أتوقع ردها المبطن بدهاء، مستبعدة ذكر حالها.

ثم أقبلت إلي هامسة.

ـ أتعرفين الخذلان من الناس يأتيك، كلما أحسنتِ إليهم!

ثم هزت برأسها مؤكدة.

أحسستُ بأنها عرت مُسلماتي لوهلة، فانا اعرفها جيدا لم تكن بكل هذه الثرثرة المتفلسفة المعنى، وكأنها تجاوزت الستين عاماً من سنين الخبرة ممزوجة بجنون اللحظة.

ودعتها هاربة من كل القذائف التي تساقطت على رأسي مرة واحدة، وقد حدثتني نفسي لائمة:

كم مرة تمنيت حلما كحلم فاطمة، وزوجا كزوج سناء، واثقة كزينب وبيتا كبيت راوية وغيرهن، حتى ذبت خجلاً أمام نعم الله.

"حين تقارن حياتك بغيرك، فأنك تخون نفسك، أمام قناعة قد أوجدها الله بداخلك، لترتقي!

حين تقارن حياتك، بحياة الآخرين، فأنت تضع ذاتك في وابل الأرض، وهم يسحقونها سخريةً!

حين تتمنى ما عندهم حسداً، فأنت شيطان نفسك، أمام أرزاق الآخرين.

اقبل، وارضَ، واقتنع، أنت وما أوجدك الله عليه، هو سعادتك.

حين تنشأ في جو تسوده القناعة في كل شيء، فانك ستنجح في كل شيء!"

أحياناً توهمنا الحياة بان كل شيء جميل، قد وُجِد هو من حقنا نحن فقط، ولأجلنا، هاربين من جحيم حياتنا، كما نظن جشعاً وشراهةً إلى نعيم الآخرين نحملها على سفينة المقارنة المثقوبة، هاربين من أحضان ماضينا، وأسطح حاضرنا، ومن بين أزقة تفاصيلنا المعلومة إلى حياة الآخرين المجهولة، منجذبين نحوها بمظهرها الزائف لتقذف نيران الغيرة والحسد بقلوبنا حتى تحرقنا!

نعيش بغير رضا في سبيل المقارنة المميتة دون التعمق في تفاصيل وخبايا الآخرين، ودون أن نترك حمداً نؤجر عليه، أو شكرا يدفعنا إلى الأمام، نحسد ونقارن، دون أن نأخذ الفارق بالحسبان، تلك

التباينات التي أوجدها الله بداخلنا وبحياتنا ؛هي باعث ودافع لنكمل بعضنا البعض، التفاوت بين بني البشر ؛هو من معجزات الله التي تبقينا أحياء.

كان حسام يقف في وسط الحفل سعيداً، وكأنه ملك الحفل، سيد رجولته، يتوسط ثلاث نساء، لم اندهش مصدومة، لأني توقعت الأسوأ، أشفقت على نفسي، بسبب عدم احترامه لغيرتي الأنثوية، وابتعاده عن تقديري كزوجة، معلنا تمرد ذكورته، أمام تضحياتي.

بينما كنت اتحسر على نفسي، أملتُ راسي يميناً لعل نظراتي تصادفه، ويصادفني، فيخجل ويرتدع، إلا أنني صادفت مريم، عاينتها حيرةً وقد وضعتني الحياة مرة أخرى في سخرية صُدفها، ولأني اعرفها بدراية فهي العدو اللدود للعروس، العروس التي نسيتُ أن أهنئها بعظيم تحولها، إلا أن مريم، وحضورها قد أدهشني، مريم تحمل اتجاه العروس الكثير من مشاعر الغيرة والبغيضة، لم تكن صديقتها البتة، أظن بوجودها هنا قد اصطادت فرصة ذهبية، لكي تكسب من حفل زفاف غريمتها مكاناً لإبهار كل الموجودين بجاذبيتها، وزينتها، ولتناول ما لذ وطاب آخر الحفل، ولإضاعة بعض الوقت، فهي تعشق اغتنام فرصها بدناءة.

غادرت الحفل على الفور، دون الالتفات خلفي، حتى أصبحت بالممر، وقد غابت عني أصوات الموسيقى، وملامح لا أريد أن ألمحها، هاتفته وأخبرته بقراري العاجل بعزوفٍ، معلنة رحيلي!

كان ناصر يصرخ بضجر و قلق، يختبيء في وحدته الدامية بين أحضاني، حتى خرجت به إلى الشارع منتظرةً حسام، على حافة الخيبات، وكأني في حربٍ باردة، أراوغُ عدوي لكي يوقف النار، معلنة هدنة باطلةً البنود، لعل السلام الزائف يعم من جديد!

خارجاً وعلى أبواب القاعة وقفت، التفت إلى الوراء، مترقبة خروجه، فخرجت زينب، وقد حضرت أمامي مرة أخرى، تقدمت نحوي بخطوات فاجرة، مُصرحة بكلمات، من بعيد قائلة.

ـ حتى الجميلات جداً، يواجهن العناء، في حياتهن.

ضحكتُ مرغمة.

ـ وكيف ذلك؟

ـ حين يخرجن، يشعرن بأنهن أسيرات، عيون الرجال والنساء، فحرية التصرف، بالنسبة لهن موحشة!

لم اعلم إن كانت تقصدني أم تقصد نفسها؟ وقد تفوقت عليها جمالاً، لكني أدركتُ، بأنها قد ثملت خيبةً أو خمراً.

ابتعدت عني بخطوتين باتجاه تكسي، أوقفته بيدها متأرجحة بحيرتها، فتحت الباب، ووضعت قدمها اليمني، وأبقت اليسرى

خارجاً، ثم ألحقت اليمنى باليسرى، وعاودت إلي مسرعة، اقتربت من، وهمست في أذني، وهي تطالع باب الصالة.

قائلة:

ـ ما أصعب أن ترى أحلامُك، يسكنها غيرك.

أضافت.

ـ أكبر أعدائك هو ؛ من يَكِنُ لك الغيرة خِلسَةً.

بعد أن استنزفت كم من طاقتي بكلماتها الموحشة، فرت راكضة نحو التاكسي، وبقيتُ وحيرتي مشفقة على أمرها، وانتابني الشك نحوها بقول.

ـ لا بد أنها كانت مغرمة بعريس صديقتها.

ما إن غابت، حتى ظهر حسام في وجهي.

لقد حان موعد الطبيب مرة أخرى، ذهبت إليه برفقة ناصر، اصطحبته بذعر تسبقه ألف دعوة، جلست أمام الطبيب، وقد جلس ناصر على الأرض، وبمقابلي جلست صوفيا، كان الطبيب يحمل بين يديه أوراق الفحص، يتمعن بهم بجُهد يطالع صوفيا بحذر، والصمت بينهم اندمج بمهارة تامة، بعد أن حدقا بي بلطف، مما جعلني أتوهم بالكثير، وقد وسوسني شيطاني بالشر بل أنه بالغ فيه، وفي طريق الإخفاق الذي اجتاحني نطق الطبيب:

ـ الفحوصات سليمة تماماً، من أي مرض عضوي.

ابتسمت شفتاي لا شعورياً، وعيناي ما تزالان تعبسان ترقباً.

أكمل.

ـ ولكن.

اختفت البسمة، وزدت عبوساً.

ـ ولكن ماذا؟

ـ يبدو أن ناصر يعاني، من اضطراب طيف التوحد.

اتسعت بؤبؤة عيناي، وتهت في ملامح الطبيب، فهربت ملتفتة إلى صوفيا، وقد زادتني بصمتها خوفاً، فعاودت النظر إلى الطبيب، ووضعت يداي على رقبتي

شعرت بأن الكون برمته انكمش بين دقات قلبي، ومات تفكيري ووعيي، وشيء عظيم من قلبي، تصدعت عظامي، وتشنج لساني عن النطق، وغاب صوتي، وأضاعت ملامحي تعابيرها، فهطلت دموع الأسى من عيوني، وكأن مجراها، قد ثارت عليه حِمَم بركانية ملتهبة، حولها إلى سيول حارقة!

صِحتُ بذعر، أفاق صمت الفتاة الشقراء(صوفيا) وحضنتي مواسية، صمت الطبيب بشجون، واتكأ راسه الى الأسفل، أما ناصر فقد كان مُنشغلاً في دورانه حول نفسه، وكأنه يبحث عن ذاته في طيفه.

سألت الطبيب، بعد أن استعدت شيء من نفسي.

ـ أخبرني أكثر.

رد.

ـ اضطراب طيف التوحد، عبارة عن حالة ترتبط بنمو الدماغ، وتؤثر على كيفية، تمييز الشخص للآخرين، والتعامل معهم على المستوى الاجتماعي، مما يتسبب في حدوث مشكلات، في التفاعل والتواصل الاجتماعي، ويتضمن أنماط (حركات) متكررة ومحدودة من السلوك، ثم أشار بإصبعه نحو ناصر، كما دوران ناصر حول نفسه المتكرر الآن.

نظرت إلي ولدي بأسى، وكأني بدأت اعرفه الآن بعد أن اكتشفت مرضه وعالمِه الذي لا يشبه عالمنا، بدأت أستذكر كل ما يقوم به من أفعال، غير مألوفة، وأقواله النادرة المُبهمة، بدأت استحضر حضوره النادر، و نظراته الموحشة، تواصله المعدوم، ثم حدقت بالطبيب وسألته بتقصي مُرعب.

ـ هل إهمالي له هو السبب؟

هز برأسه مستخفاً بكلامي..

ـ لا علاقة للبيئة المحيطة بالتسبب باضطراب التوحد نهائياً، الأسباب رغم كثرتها، إلا أنها مجهولة الهوية، إلى حد اللحظة، فنوع جنس ولدك، قد يزيد من الاحتمالية، فمثلا الذكور احتمالية إصابتهم، بهذا المرض أكثر من الإناث، والتاريخ العائلي أيضا فإذا

كان احدهم، يعاني من الاضطراب، فاحتمالية الإصابة قد تزيد لولادة طفل آخر، يحمل ذات المرض، وأحيانا بعض الاضطرابات الموروثة عائلياً، كالإصابة بمتلازمة الصبغي xالهش.

ثم أكمل..

ـ أيضاً الولادة قبل فوات 26أسبوع على الحمل، قد يعرضه للإصابة، وقد تكون هناك صلة بين الأطفال المولودين لأبوين أكبر سناً، والإصابة بهذا الاضطراب.

وقفت أمامه وكأني قد دُعيتُ للمثول أمام القاضي، للدفاع عن تاريخي الطيب الأعراق، وقد أسندتُ كل متاعي وجهدي اتجاه عائلتي إلى براهين قد تبقيني بريئة أمام جناية عظيمة، إن حصل و اتُهمتُ بمعصيتها، فسيكون ذلك أفكا أبدياً يسحق دلالي و خشونتي ويقيني وأزري هذا، حتى تمكنت من قول القليل:

ـ أنا تزوجت في عمر العشرين، وزوجي كان يكبرني بخمسة أعوام لا غير، لم اسمع البتة بأن أحداً من أهله وذويه، أو أهلي قد عانى من هذا الاضطراب، لقد أكملت شهري التاسع ثم أنجبته، لم أتناول أي عقاقير لم يكتبها لي الطبيب، حين كان داخل أحشائي، ثم جلست باكية مرة أخرى.

تقدم نحوي وجلس أمامي مواسياً لي بعلمه.

ـ لا غبار على أقوالك، لا شيء أكيد بعد، ولا أبحاث كافية، لمعرفة الأسباب.

نطقت صوفيا بصلابة .

ـ التوحد تحدي لكِ، وله.

لقد استخففت بقولها كثيرا حينها، وجمدت مشاعري بصلابتها، لم تكن صوفيا، مواسية، بل كانت رزينة بشكل مؤذٍ لهول اللحظة، تجاهلتها قاصدة استصغارها، وسلطت انتباهي ونظراتي مرة أخرى نحو الطبيب، وسألت:

ـ وهل كان من الممكن أن أحميه من هذا؟

رد.

ـ لا توجد وسيلة، لمنع اضطراب التوحد، ويعتبر التشخيص والتدخل المبكر، مفيداً للغاية، ويمكنه تحسين السلوك والمهارات، وتطوير اللغة، وقف فجأة و صفق ب كلتا يديه، وكأنه وجد كنز.

ـ ناصر مازال صغيراً، سنصنع منه طفلٌ خارق.

نبض قلبي بالتفاؤل المنزوع من مرارة اللحظة، ونظرت على الفور إلى ناصر، فرد علي الآخر،

بنوبة صراخ مفاجأة، فتوقفت نبضات قلبي متشائمة، وصغرت ثقتي بالطبيب وكلامه، والعلم، والعالم!

وصرخت:

ـ انه يصرخ دكتور، لا اعلم لماذا؟ انه فقط يصرخ.

نطقت صوفيا مرة أخرى بهدوء.

ـ كوني لينة.

حدقت بها، وقد غرقت عيوني بدموع الخيبة , بإذعان وخضوع سألتها.

ـ كيف؟

ـ لا تقلقي، فقط ابحثي عن سبب صراخه، سبب ضجره الصاخب، وفزعه المفاجئ في كل مرة، فمثلاً أنا كنت أراقبه حين صرخ، كان يؤشر إلى كاس الماء، لأنه لا يجيد التعبير، حين انعدمت الاستجابة صرخ، لأنك لم تدعيه يحصل على ما يريد، لأنك ببساطة لم تلبِ حاجته، ، وربما رغب بشيء من الاهتمام.

أكملت.

ـ يجب أن نتعلم، متى يصرخ، ومتى تأتيه نوبات الغضب، ونعرف السبب، سنعلمه كيف يكرر الكلمة مرة واحدة، سنعلمه كيف يلعب ويتواصل، سنعلمه كيف يكون إنساناً ناجحاً.

ضحكتُ بهستيريا.

ـ أنتِ تتحدثين عن معجزة، وهل يستطيع؟

اقتربت مني، وأشارت بإصبعها السبابة، صوب رأسي، شعرت بأنها حشرتني داخل حروفها بقوة قالت:

ـ إن تعلمتِ سيتعلم، وان جهلت سيجهل.

أيقنت أخيراً بأن التوحد مكتوب، ولا يمكنك الهروب منه بالرفض، يُخلق مع صاحبه، كلون عينيه، وصوت نبرته، ولون بشرته، وفطنته، لا يمكن أن تستأصله، ويجب أن ترضى به، وتتصدى له، وتنمي قطبه المعاكس ألا وهو التحدي، لأن من يحمله، من حقه أن ينمو بنضج.

بعد أن انتهى اللقاء الأول، وخرجت من غرفة الطبيب، وفي صالة الانتظار، وقع نظري على الجالسين، متحدية صدفة القدر، و سخرية الحياة، حين لمحتُ وجه إنسانة، لم تغب عن بالي، وقد أسميتها بامرأة الحس اللبيب.

عَجَلتُ بسيري نحوها، متلهفة ببلبلة كلماتها الفطينة، احتضنتها على غفلة، واحتضنتني بفطنة، بكينا وكأننا على موعدٍ مع الحزن.

حدقت بعينيها، معترفة لها، بذنبٍ لم أرتكبه، وبمرض لم أرغبه، وبحالٍ لم أتصور حدوثه، طالبة عفواً يسقيني صبراً.

ـ ابني مصاب بالتوحد.

أجابت بجهل.

ـ ماهذا؟

مسكتها من يدها وأجلستها مكانها، وجلست بجانبها، وأفصحت لها بتهور:

ـ مرض غريب الأطوار، وغامض الأعراض، يحدث دون سبب، لكن الطبيب اخبرني باني لستُ آثمة، وجلوسه أمام الشاشة لم يكن الذريعة، بل كان واحداً من الأعراض، وقال أيضاً بأنه لم يكن مصاب منذ الطفولة بل متأخراً، وكأنه تريث كثيراً ليعذبني.

احتضنت ناصر بقوة، والدمع منهمر مني، ثم أكملت بهوسٍ مؤلم:

ـ ناصر على الدوام يدور حول نفسه، ويكرر الكلمات، يلعب لوحد بانعزال، لا يتواصل بفطرته بالمنطق المعهود، تجتاحه نوبات الصراخ والبكاء، وكأن الحرب تقرع طبولها في مأمن مسكنه.

وضعت يدها على رأسه برحمة الجدة العتيقة، ولين الحكمة الأنيقة، وقرأت ما طاب من الآيات القرآنية، ثم قالت:

ـ مهما يكن يا ابنتي، إنها الدنيا فلا تندهشي من سوء عطاياها.

ـ تهذبي واعقلي.

بحروفها قمعت أنانيتي، وشيء من ارتخائي، ونبهتني إلى شخصها، وحضورها إلى هنا.

ـ لم أنت هنا؟

ـ لنفس السبب، إنها الدنيا.

ثم أكملت.

ـ يا ابنتي الدنيا غروره، تُذهب الحق وتبقي الأباطيل، حتى يختال الإنسان بأن الدوام عليها باقٍ.

ـ إخوتي في الدم أخمدوا نور الحياة في قلبي، وأماتوا حلوها في عيني، حين تهالكوا على مأوى يحميني من عثرات الزمن، ويسند وحدتي بعد عزوفي عن الزواج، ويخبأني بين جدرانه عوضاً عن صدر ولد تمنيت إنجابه، يريدون سلبه بجشعهم الدائم، وشرهم الشيطاني، حاولوا قتلي ليرثوني، قبل مجيء يوم نهايتي، لقد أحرقوا جوارحي بأنانيتهم، وسخريتهم مني، لم أكن اعلم بأن من أنجبته أمي سيكون عدواً لقلبي.

ـ وهل هم فقراء ليطمعوا ببيتٍ يؤويك؟

ـ يا ابنتي الطمع ليس من أعراض الفقر!

ثم أكملت.

ــ هم أغنياء ولا ينقصهم سوى القناعة.

"هناك قسمٌ كبير مُحتد بشري ذكوري في مجتمعاتنا، ينظرون إلى الميراث وكأنه حق ذكوري بحت، بلا منازع ولا رادع، فارضين على إناثهم حرمة مقاسمتهم تِركة والدهم، متمردين بذلك على أوامر خالقهم، بالرغم من قراءتهم الدورية للقرآن وفي كل رمضان، لكن لا يعلق بذهنهم سوى مثنى وثلث ورباع ".

سألتها بفضول وحرقة .

ـ وأنتي هنا لهذا السبب؟

ـ أنا هنا لأداوي جروح فؤادي، باحثة عن دواء يشفيني من عضة كلاب الإنس، لعلي ابلغ الله بقلبٍ سليم.

ـ وهل مضيتي ابتغاء التقرب منهم بالحسنى؟

ـ يا ابنتي في علاقاتي معهم، كافحتُ ضابطة نفسي أمامهم، بالخير الوفير أمام شرهم، فخذلني إحساني بغرق نفوسهم بالشر، واجهتهم وقاومتهم وصبرت على ضلالهم، إنهم متشتتين النوايا، بين متمرد على الحق، وعنيف على رحمه، و لئيم على قرابته، في كل مرة أضبط ردة فعلي، مع كل واحدٍ منهم، أكتشف باني قد هُلِكتُ في سوء نواياهم.

اكملت:

ـ تخيل لي يوماً بأن الصمت ؛هو الوسيلة للنجاة، كما وعظني احدهم، فزادني ذلك مرضاً في قلبي.

وآخر شجاع، كان قد أرشدني بالجواب الرادح، وحين طبقتها اتهموني بالوقاحة، وآخر نصحني بالابتعاد والسطحية، فوجدت نفسي وحيدة!

حتى أصبحتُ تائة، بين نصائح العالم كالمجنونة، قرابتي يتفننون بجروحي، وأنا واقفة مكاني، أتلقف أربَ خسارة كياني أمامهم، واحدة تلوى الأخرى.

أمهلتني استفساراً مقصوداً.

ـ وماذا وجدتي؟

ـ وجدت بأن اكظم غضبي، وأعفو عنهم، وأهجرهم بحذر.

اقتربت منها واحتضنت يدها.

ـ وماذا الآن؟

ـــ سأقيم احتفالا، بانتصاري على طمعهم.

لم أعي ما قالت، ولم تُعرب عن قصدها، حتى ضعت بحروفها.

فتهت بسؤالي قائلة:

ـ هل يدعونك لمشاركتهم احتفالاتهم؟

أجابت بسخرية.

ـ هم يعيشون معي، في ودٍ مؤقت، مرهون بالمصلحة.

أجبتها بدهشة متمردة.

ـ ألا تستحقين السعادة؟

ردت بمنطقية يغلبها الأسى.

ـ في الحقيقة لِكُلِ قلبٍ دواء، ولكل مقامٍ إطراء، من يستحق الحفلات والولائم ؛هو من يملك النفوس بالدولارات، أما أنا فلا استحق إلا الخيبات والضربات!

أجبتها راجية:

ـ أنتِ تستحقين الجنة.

اختفت من أمامي في طرفةِ عين، وخرجت من المكان، دون أن تدخل على طبيبها، فجأة اعتلى صوتي يناديها.

ـ سيدتي ألا تريدين أن تفضفضي لطبيبك؟

هزت برأسها.

ـ لقد اكتفيت بك.

ثم ابتسمت مصرحة

ـ أتمنى لك خير الدنيا كله.

فارقتني مرة أخرى ولم اعرف لها اسم بعد.

"بحثتُ مطولا عن نظافة القلوب، حتى وجدتها في قليل من الناس، وحاولت أن أجد مفتاحاً لصفاء النية يشفي ضلالي وضلال من حولي، فلم أجد أنظف من أولئك الذين يحبون لك الخير كما لهم بتواضع، فأولئك رفاق القلوب، معاشري في الجنة".

حين أخبرتُ حسام بمرض ولده، ظل صامتاً وكأنه يمنحني وقتاً للرجوع بكلامي، نظر إليَّ وكأنه يسمع أكذوبة أو مزحة، بالرغم من جفاف كلامنا وخلوه من الممازحات، هدأ صمتاً أخافني أكثر من الخبر نفسه، أخرج من جيبه سيجارته الوغدة، وأشعلها بنيران أنانيته، رافضاً أن يتكبد معي بأولادي، أدار لي ظهره بعنفوان، وأخذ يناظر الخارج، من خلف نافذته ثم

حقق معي بلوم:

ـ كيف عرفتي، ومتى؟

أجبته متلعثمة، ورجفة قد أصابت قلبي المتعثر، رغم محاولاتي السابقة على البقاء هادئة، مستعدة لهذه اللحظة، إلا أنها باءت بالفشل أمام جبروته .

ـ قبل يومين، لقد اصطحبته إلى طبيبٍ نفسي، وتم تشخصيه.

ظل مكانه وعلى حاله، وقد اختفى دخان سيجارته بين عيوب نظراته اللائمة، غير الخائفة، وفي حروفه المتهمة لي لا المساندة، حتى حرقني لهيب رجولته البالية.

ـ لِمَ لم تخبريني لحظتها؟

ـ لقد انتظرت الوقت المناسب.

ازداد دخانه وعلا، حتى وصل سقف كبريائه.

ـ لِماذا اصطحبته لحظتها؟

ـ لقد كان غريب الأطوار، وسيء الحال.

وأخيراً، أدار لي رأسه وحدق بعيني بلؤمٍ وتعنيف.

ـ وما سبب هذا التغيير المفاجئ؟ لقد كان كبقية الأطفال؟

ضحكت ساخرة، ثم عبست.

ـ هذا قدر الله، ولا ذنب لي.

مباغتة أرهبني، حين تقدم نحوي، وأصبح قريب جدا، حد الذعر، ونظر بعيني بتهكم وقال:

ـ الذنب ذنبك بلا شك، هل تذكرين إهمالك له، في حب أخيه؟

تجرأتُ رغم هلعي.

ـ إذا كان الذنب ذنبي، فهو ذنبك أيضاً، أنت ترفض الاهتمام بنا جميعاً، تحب نفسك وتدللها، تحضر إلى هنا للإقامة فقط، وكأنك نزيل فندق عائلي بأربع نجوم .

قاطع صراحتي بصفعة قوتها تعادل رفضه وطغيانه، وكأني ضميره الغائب، الذي يخفيه عن حضرة التأنيب، خوفاً من الملامة.

تقدم صوب مائدة الطعام، التي أعدتها قبل وقتٍ قصير، منتظر قدوم من أحببت، ليشاركني رغيف خبزي وهمي، إلا أنه دفع بها وبهمي، حتى سقطت أرضاً وسقط عزمي، صدمت وارتعبت، و وضعت يدي على فمي، محاولة كتمان صوتي، طالبة ستر فضيحة زوجية، كان يرمي كل ما تراه عينيه الغاضبتين باطلاً، وكأن قلبه تحول لزلزال، لأرضٍ مسخوطة

بينما كان يخوض انقلابه هذا، مرتداً عن أبوته، منهارة إنسانيته، أمام ُضُعفي، مُسقطاً منابت العائلة في عمق أنانيته، حضرا أحمد ومحمد، يبكون بهول، وقفوا بجانبي مذعورين، رافضين لثورة أقيمت

ضد كنفهم الأم، احتضنتهم تحت جناحي الذي لا يُكسر، رغم كثرة السقطات، تدفئهم أنفاس أمومتي التي لا تنطفئ، رغم شد هبات اللعنات، هدأت ثورته الملعونة بتصريحٍ منه، مدسوس الوفاء:

ـ سأهجرك، وهذا العقاب كافي.

لم استطع الرد عليه رغم امتلاكي للحق.

"أحياناً نُصاب بانفصام شخصي، حين نقابل بعض الأشخاص، الذين يشعروننا على الدوام، وفي كل مرة نقابلهم بأننا ضعفاء، أو أقل منهم، وعلى الدوام يسمون قلوبنا بكلامهم الثقيل، أولئك يرهقوننا حتى نصل معهم إلى حالة من التناقض، فنغير من طبيعتنا أمامهم، هاربين من أعماقنا القوية، نحو سطحيتنا الضعيفة".

ـ في الحقيقة هو هجرني منذ زمن، منذ أن حَمَّلني كامل المسؤولية داخلاً بينما هو يلهو خارجاً، هجرني حين تغاضى عن سماعي مجادلًا مُعارضاً، وكأننا نقطن مجلس نواب عربي، سبق وقهرني بأقواله مداهماً لي بتصرفاته، وآمراً بأقواله، حين فضَّل كل حقير و سخيف على كرامتي، متناسياً اعتباري ووجودي، حين هجر قيمتي كأنثى، الآن هو هجرني وجوداً، وليس روحاً وحضوراً .

أحسست بأني مُهددة من جميع الاتجاهات دون استثناء، معيلة بلا سند، ومعينة بلا داعم، فلا ناصر لي ولا نصير، جميع براهيني تشتتت، حاولت الوقوف على قدمي، مجردة تفكيري من كل

الانكسارات، لكني سقطت غرقاً في بحر أوجاعي مرةً أخرى، حتى خِلتُ بأني سأموت مُكفنة بكفنٍ أسود يشبه هزائمي.

سقطتُ على الأرض، عاجزة مغلوبة، قالها بقسوة وجحوداً لعشرتنا، مُخلفاً وراءه سمعته المهينة، دون أن يلتفت خلفه لوداع وديعته ُ، أو حتى تفقد أحوال رعيته، لم أتوقع بأنه قادر على فعل ذلك وبرذالة، وإذعان، وبأنه يستطيع أن يهجر مسكنه بعد أن انقلب عليه، وأطاح بشعبه دون الاطمئنان على ضحاياه، لو جمعت كل مفرداتي السيئة لهجائه، ما اكتفيت، ففضلت الكتمان، مصطحباً حقيبة سفر الكذب والخيانة. هاجر، إنها ذات الحقيبة البنية، التي ابتاعها مرة وقبل سنواتٍ طوال، بحجة احتواء أغراضنا بداخلها، من أجل سفرٍ سبق وأن وعدني به، لقضاء شهر العسل، خبأتها بأمل في مكانٍ ما، في غرفتي بعيداً عن واقع أيامي معهُ، لعلها تشهد يوماً على حدوث أحلامي، التي حدثني عنها، وها هي شهدت على تخبطاتي وانقلاباته، ليت واقعي ظل روتيناً، حتى لو قتلني مللاً.

توقف عند الباب، لحظةً، والتفت إلي محدقاً ومتهماً، لإدانتي، وقد حكم علي مبرراً فعلته:

ـ أنتِ تغيرتِ.

أجبته ناكرة .

ـ هل تذكر ذلك الطابع الأول الذي أخذتهُ عني؟مازلت أنا وفي قالبه، ولم أتبدل، شكوك نحوي، ونمنمتك علي، وعتابك المتكرر لـي، هو من غير القالب في عينيك، فأنا ما زلت أنا.

خرج، وأغلق خلفه الباب، بقيت محدقة بأثره، وبأولاده، الذين سقطوا أمامي، مكسورين السند، طالبين العفو مني، لعلـهم يتناسـوا، هزيمة أبيهم لبراءتهم، وطيب أيامهم.

هذا أثر اختياري، وقراري، هذا أثر قلبي الصغير، الـذي تعلـق بالإنسان الخطأ، هذا هو أثر عقلي الجاهل، الذي لم يفكر به، قبـل أن يتعلق بحبه، هذا هو أثر الغبـاء الـذي سـكن إدراكـي، دون السـماح لفطينتي بمعرفة بمن سأربط وثاقي، هذا هو اثر فراشتي.

بعد لحظات من الرضوخ، نويت أن أهجر البيت بأكملهِ هاربـة وأبنائي إلى بيت أمي المهجور منذ زمن، نويت ترك الطبيـب، وقبـول ناصر على ما هو دون تحدٍ مزعوم بـالقوة، ولا حتـى عـلاج مرهـون بالحظ، نويت أن أترك حسام للزمن متمنية عودته، بمنحه جرعات من كرامتي المجروحة، نويت الاستسلام لكل جبروتِ الظلم، والانسحاب من كل حروبي، والانهزام أمام كل المـؤامرات الـتي وقفـت ضـدي، نويت أن أتصادق وانكساراتي، بعـد أن خـاب ظـني بكـل مـن هـم حولي، وقد طاب لي عليل الخسران، خاضعة لقوانين الفشلِ بإذلال، حتى رفعت راية الإحباط، ونويت اللحاق بأثر الفراشة.

فجأة سمعت صوت الإنصاف، قد علا في مسمعي لوهلة بصرخة عالية هزت جدران قلبي المخدوش.

ـ انه ناصر.

لملمت جروحي بين ضلوعي وهرولت صوب حجرته، كما النحلة، زاحفة على حطام خيبتي، حتى وجدتُ أخوته يحيطونه بخوف، ويبكون معه تضامناً معه ومحنتهم، ذلك المشهد كاد أن يقسمني إلى نصفين، و قد حرق راية استسلامي مخلفاً عسل أمومتي، وقد حلت لحظتي بقوة فريدة، وزرعت بقلبي شوكة الصبر، وقد ارتوت من عسل دموعي، ولهيب أنفاسي، حتى وصلت لعقلي و استحكمت فيه باشتداد الملكة، وتفرعت جذورها بكل معاقل رأسي، راحلة إلى إدراكي التائه عن أولادي.

حتى تبخرت من عقلي كل كلمات اليأس، تقدمت نحوهم مواسية، واقتربت منهم أكثر، وقد أكملت فجوتهم بجسدي، شيدتُ عري روحهم بأمومتي، و بأساسٍ متين، و بوقاية فائقة الأمان، حتى عمرنا معاً، خلية نحل أنا ملكتها.

استعدت بناء بيتي من جديد، وكأني بلقيس، قد تجدد عهدها، ناسفة تاريخها المهزوم، دون الالتفات إلى خطواتها الضائعة، دون الاستشعار بالندم، أو الرضوخ للزمن، تقدمت واياهم بعزيمتنا، وتخطينا الصعوبات التي نزعناها من قلب المصائب حتى أصبحنا

متوحدين قلباً و قالباً، علمتهم بأن الحياة لا تقف عند أحد، ولا تنتظر أحد، يجب أن نسابقها بقوة وصبر، مضينا معاً كعائلة هدفها التقدم بعيداً عن الكذب والخداع، بعيداً عن التقاعس والجحود، مقلعين عن المغيرات الزائفة والشكوى اللامنتهية .

علمتهم بأن مصاعب الحياة اجتيازها ممكن، إذا كنا معا خطوة بخطوة، جيش واحد كالبنيان المرصوص، حتى نبلغ مطلبنا بسلام، شعارنا التقدم وبكل شيء.

"لو تحدثت عن التطور الإنساني، فحديثي سيكون بما يحمله الإنسان من مبادئ، وما التطور الحقيقي إلا ازدياد بالخلق، وحب الآخرين، والتسامح، كلما كبرت بالعمر استوجب عليك مضاعفة مبادئك الفاضلة بالتوازي وازدياد أيامك، وإلا ستبقى بتخلفٍ رهيب، مع التكنولوجيا التي تتباهى بها..."

ها قد حل يوم ميلاد ناصر الرابع، طارق أبوابه، وقد ثقل قلبي بغزارة من المواجع، لكني لا أنكر بوجود طاقة عظيمة بداخلي، قد استقطبتني ودفعتني للأمام، بهمة منتهجة سبيل العائلة، راضية بقدري ومرضية من حولي بإشفاق على حالنا، حضرت بما أتيح لي و بكل حب و إخاء ثلاثة أصناف مُتنوعة

من الكيك، واحدة بالموز كما يحب أحمد، والأخرى بالفراولة كما طلب محمد، والثالثة بالشوكولاتة كما أرغب أنا، وقد تمنيت

توقاً، لو كان ناصر صاحب الرغبة، لم يأذن له القدر بأن يشتهي لـون أو وطعم.

زينت المكان بأجمل الـورود، وقـد اشـتريت التوليـب لنفسـي، ورتبت الطاولة بأجمل الأصـناف وأطيبهـا، وزينـت المكـان بـالألوان الملائمة والموافقة لمزاج ناصر، ويقظتـه، وضـبت الحفـل بمـا يليـق بـه جبراً، فوالده هجر المملكة دون إنصاف وإكرام، هرب بجبنـه، ممسـكاً بحقوقنا عليـه ببخـل، وقـد تعـرى مـن قيادتـه بإذعـان تاركـاً رعيتـه مستضعفين، علقنا في ضيق حاجاتنا شحيحي المال، والحال.

دعوتُ أقـرب الأصـدقاء والمعـارف، رغـم تنبـؤي بهجمـتهم السـيئة، حـين يبصـرون ناصـر، مترصـدين تصـرفاته، أدري بـأنهم سـيتحولون لعليلـي الظنـون بحمقهـم، محصـوري الـتفكير بفهمهـم الزهيد، وسيضعون ناصر في بؤرة دائرتهم السيئة، ملتجئين إلى ثرثـرة تخصه، سيلمزونه دون حشمة وخزي متـوهمين كمـالهم أمـام علتـه، وسيبدؤون بتحليل تصرفاته بشكٍ مزور ملفـق، دون مهابـة وشـفقة، غارسين في قلبي خللاً ونقيصة، وفي عقلي خوفا من المجابهة.

"من العيب أن تحكم على احدهم من خلال علته أو مرضه أو حتى نقصه فهو مجبر بهذا وليس مخير، لكنكم مخيرين بين الإنسانية أو الحيونة."

عندما اقتربت الساعة من الخامسة مساءً، جلست مطولا مع ناصر محاولة إفهامه، بعض كلمات وأوامر بسيطة، و بأن هذه الحفلة له ولأجله فقط، كنت اعلم تماما بأنه لا يمكنه فهمي بشكل جيد، ولا يمكنه أن يبلغ درجة التواصل الطبيعي التي أريد، لكني حاولت رغم التعسر، أوقفته وكلي سعادة على مقعد أمام طاولة ميلاده، وقد منحته كل اهتمامي بمشقة رحيمة، نابع من قلب ام مكبلة المواقف، صدقت سعادته وابتهاجه البريئة بعد أن أحطته بزينة مبهجة، ممزوجة بألوان الفرح تسر الناظرين ممزوجة بأصوات الموسيقى.

حضر الجميع واصطفوا حول الطاولة، أطفالا ونساءً، وقف أحمد بجاني مسانداً، وجلس محمد مقابلي عابساً، متخذ من مجلسه مكانا استراتيجيا، مترصداً احتلال ناصر لقلبي، تجاهلته متغاضية، وبدأنا ننشد كلمات التمني بالعام الجديد لناصر، منتظرين لحظة إطفاء ناصر شموعه الأربع، و مباغتةً و بالتآزر وشرودي مع جمال اللحظة، شرد منا ناصر بخطواتٍ ظالمة نحو شاشته جالساً محدقاً بها، تاركاً خلفه ضيوفه، وبهجة قلبي، حدق به الجميع مندهشين، رغم تحسبي لكل شاردة وواردة، إلا انه غالبا ما يغلبنا القدر بغيبه، لقد أخمدتُ التلفاز بيدي، تخوفاً من لحظة كهذه قبيل الحفلة، لكنها الأقدار شاءت وأبت أن تأخذ مني لحظة فرحتي بناصر، بهذه البساطة المسمومة، صرخ احمد.

ـ لقد أشعله محمد يا أمي.

نظرت إلى محمد بغضبٍ دامي، كاد أن يتحول إلى قنبلة قادرة، على أن تُشعل البيت كله بسخطي، وترديه مصاباً، لكني أهمدته.

بعضهم ضحك سخريةً، ومنهم حدق اندهاشاً، والآخر نمنم على مهل، لجموني جُرحاً صارما يخالف الإنسانية، وقد شعر كبار القوم بوجود مشكلة، تتجول في عقل ناصر التائه، أما صغارهم فقد أخمدوا الشموع زوراً وبهتانًا، وقطعوا كيكة ميلاده بسكاكين خيبتي وأكلوه جُرماً.

غادر الجميع، وظلت شموع الانكسار مُلتهبة في أكناف بيتي، ومعاقل رأسي.

عاتبت محمد على الفور بعد أن خرجوا الضيوف.

ـ لم تصرفت بسوء، لم أشعلت التلفاز وأطفأت شمعة سعادة أخيك؟

وقف من مكانه وكأنه مارد البيت، وقد حل محل أبيه بعنفوانه.

ـ لقد سرق مني حبك لي، وأردت أن اسرق فرحته.

لم أتخيل بأن طفل لم يبلغ العاشرة بعد، قادرا على التفكير بكل هذا الجحود من اجل طفرة اهتمام زائدة مني.

ذلك التصرف جعلني مواظبة، على إعادة ترتيب أولوياتي و بعناية.

يوم الأحد كان موعدي مع الطبيب، كان علي أن ابلغه بكل مايدور في بيتي، لعله يأتيني بأضعافٍ من التعافي من أوجاعٍ قد طَفَحت أثقالها ميزان طاقتي.

رد على كل هذا بقول:

- لا تيأسي،

-مازالت الطريق في بدايتها، وأنا معك حتى نهايتها.

بحثت عن صوفيا ببين أروقة حجرته، وكلي حاجة لكلماتها الجافة الداعمة، التي تدفعني إلى الأمام بصلابتها.

نظر إلي مبتسماً.

- هل تبحثين عنها؟

هززت براسي.

أجاب.

- إنها مشغولة الآن.

ثم تنهد بقوة.

- هل أنت بخير دكتور؟

- لا تقلقي، سوف نعمل أنا وأنتي بجهد لتطوير قدرات ناصرللاحسن، سوف تلاحظين تطوره إن بقيت صابرة مجاهدة.

عدلت جلستي استعداداً، وقد أعددت نفسي بما أوتيت من قوة.

ـ أنا جاهزة.

أفصح.

ـ كاتبة ومعلمة اسمها كارول غري، قامت بتطوير تقنية القصص الاجتماعية والمحادثات المصورة، وهي إستراتيجية مستخدمة حول العالم مع الأطفال المراهقين والبالغين المصابين باضطراب طيف التوحد، تؤكد غري أن القصة الاجتماعية يجب أن تحتوي على أربعة أنواع من الجمل، الجمل الوصفية، والجمل التأكيدية، والجمل التوجيهية والجمل المنظورية، بوصف تفاصيل تتعلق بردود الأفعال وعواطف الآخرين في مواقف معينة، أما الجمل التأكيدية تقوي معني الجمل الأخرى، من خلال التعبير عن رأي أو قيمة مشتركة، والجمل التوجيهية توضح بايجابية الردود المقترحة أو الاختيارات تجاه مفهوم أو موقف معين، وتقوم بتوجيه سلوك الطف.

قاطعته باستياء.

ـ لكن ولدي مازال صغيراً ولا يستطيع القراءة بعد.

أجابني.

ـ أهداي، هذه الطريقة تحدثت عنها للمعرفة وربما تلزمنا في ما بعد، ثم أكمل.

ـ سنقوم بإعادة تشغيل عقل ناصر وبرمجته، كما تفعلين مع كمبيوترك، عن طريق التكرار، وإعطاء الأوامر، وتحفيز حواسه على

العمل، وتسليط الانتباه إلى كل شيء محبذ فعله، وسنجنبه كل شيء يضر به، وقد رفع يده اليمنى وبدا بالإشارة باصابعه بانتظام، بدايةً من الإبهام، ونهاية بالوسطى، وكان ذلك بحب واهتمام وتعاون.

أكمل.

ـ عمر ناصر الزمني الآن أربع سنوات، لكن في الحقيقة عمره العقلي سنيتن، سنقوم بإضافة عامين على عمره من خلال برنامج تطويري سوف نمشي عليه معا.أضاف..

ـ حين تكون سرعة التعلم بطيئة جدا كحالة ناصر، سوف نحتاج بأن نبرمجها، بحيث يصبح أسرع في تعلمه واستجابته للانفعالات و التعلم.

باندهاش أجبته:

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ طفل التوحد يجب التعامل معه على حدا وبخصوصية تامة، لان القدرات بين كل حالة وأخرى مختلفة ويختلفون باستجابتهم للعلاج أيضاً، لكن هذا لا يمنع من اندماجه بأطفال آخرين من نفس حالته أو أسوياء، سوف نعمل على إعادة تأهيل ناصر من جميع الجوانب، ليس فقط من الجانب السلوكي مهملين بذلك جانب الكلام والتواصل.

وقف مكانه، باندفاع يقابل استيعابي بحركات يديه.

- سنقوم باقتحام عالم ناصر، باحثين عن نقاط القوة فيه ونقاط ضعفه أيضا، سنساعده على الكلام، والتواصل والتكيف، ضمن الواقع الذي يعيشه.

سألته:

- دكتور وهل يحتاج علاجه إلى دواء؟

- الدواء لمرضى الاضطراب يفيد أكثر في حالة تعرضه لنوبات صرع.

سألته مرتبكة.

- هل سيكلفني ذلك كثيراً؟

هز برأسه جالساً وقد أخذ وقته، ثم مسح دمعاً خفياً عن عينيه، فتح دولابه، وأخرج شيكا، ومد يده الراجفة نحوي، وقدمه لي.

قمت من مكاني، وقد فُزع ناصر من هولي، والتصق بي بخوف، رفعت يدي عفةً.

- لا اقبل صدقة.

وتقدم نحوي حتى استقر أمامي بثبات، وأصبح قريباً مني.

- إنها وصية، وليست صدقة.

بفضولٍ حاد.

- وصيةَ لي أنا؟ من؟

ـ إنها لناصر، من السيدة نسمة.

ضحكت غرابة.

ـ لا دكتور أنت مخطئ، لا اعرف احداً بهذا الاسم البتة

رد بدراية.

ـ إنها تعرفك بصدق، وقد أوصتني بسخاء أن أنعم عليك بهذا الشيك، في سبيل تعافي ناصر.

أكمل.

ـ لقد صدفتيها هنا، لقد باعت بيتها ووهبت لك جزءاً من ثمنه، ولطفل يتيم كانت تعرفه قبل موتها وقد قالت في حقه قائلة:

ـ منذ صغري كنت احدث نفسي باندهاش لمَ كل هذا الاهتمام من الله باليتيم، وقد اجتمعت رحمته في قوله (وأما اليتيم فلا تقهر) كنت أظن بان غياب السند المادي هو الخسارة الأكبر لليتيم، لذلك وصانا الله ورسوله به، لكني بعد أن اختبرتُ الحياة ورأيت مدى تعلق الأبناء بآبائهم، ومدى الكم الهائل من الحنان والرحمة والحب غير المشروط من الأب اتجاه الابن، أيقنت الحقيقة.

أضافت قائلة:

ـ لم أكن اعلم بأن الأب هو روح السعادة لأبنائه، حين يدخل البيت همومهم تزول، وأرواحهم تتجول فرحا بلقائه، و حين يموت الأب مخلفاً ورائه أطفالاً، فان روح طفله تظل في نقصانٍ دائم، وفي

كل ثانية يفقد منها شيئاً، بسقوط جدار كان يتكىء عليه، تصبح دمعته قريبة، وكسر خاطره ملازم لكل مايتعرض له من مواقف وأباطيل خالية السند، وملجأ خاوٍ؛ لهذا وصانا الله به، فالأمور لا تقتصر على المال بل هي أعمق بكثير.

شهقتُ مذعورة باكية.

ـ امرأة الميراث؟

هز برأسه مؤكداً حزنه.

وقفت أمامه أحتضن عزائه وعزائي على ملاك رحل باكراً، حتى سقطت دموعي على وجنتي ناصر، وهدأت وحدقت:

ـ كيف ماتت؟ ولم وهبتني مالها؟ ابني ليس بيتيم!

ـ لا اعلم كيف، ربما قهرها كلامك.

أجبته بتوجع

ـ أو رحمةً أزلية منها.

ثم قال:

ـ وهبتك المال، لأنها اعتبرتك فرصة.

بفضول سألته.

ـ لِمَ اعتبرتني فرصة؟

أجابني بخبرة معطاءة.

ـ عمل الخير فرصة، كل يوم يمر بحياتك ؛ هي فرصة جديدة، يمنحك الله إياها لتقتربي منه أكثر، تجنبك للغيبة والشكوى فرصة، وابتعادك عن الكذب وأذية الآخرين فرصة، يمنحك الله فرصة العطاء، حين تطعمين قطة جائعة، و فرصة جبر خاطر إنسان مكسور حين يشكو لكِ، يمنحك الله فرصة إماطة الأذى عن الطريق، وزيارة مريض، وغيرها، كل تلك المواقف يمكن أن تكون صدفة، إما أن تغتنميها لفرصة تسعدك، أو تغفليها بكد!

سألته مُنهمكة بالخير الذي أسمعه.

ـ وماهي أعظم الصدقات برأيك؟

أجاب مُبتسماً، وقد أشار إلى براءة وجه ناصر.

ـ صدقة تتبعها ابتسامة.

"لا تبخل بعطائك ممسكاً بدراهمك حتى الموت، وغيرك ربما يحيا بواحدٍ منها، التبرع بالمال، حالة عطاء عظيمة، لا تبخل بها تحت أي حُجة، ولا تبخل بدعمك لكل محتاج، سواءً دعما ماديا أو ومعنويا، أو الاثنان معاً، فكلاهما سينبت سعادة، في قلب مريض وفرحة في بيتك، فأجرك جنة الله وابتسامة إنسان".

ذات يوم وبينما كنت أجهز ما عندي من طاقة مادية ومعنوية، وقد حضرتُ لكل حرف لقنني إياه الطبيب، إلى حزمةً من الجمل والصور، حتى بتنا في مملكة التغييرات الجذرية، انقلب بيتي رأساً على

عقب بالتزامن وانقلاب اهتماماتي، متخلية عن تفاهـاتي، ومعرضـة عن سلبياتي، تاركة دلالي.

اشتريت الكتب التي تتحدث عن الاهتمام والصبر و التوحـد وسبل علاجه، حتى تحولتُ من زوجة متذمرة إلى امرأة عالمة وقارئـة، وطبيبة بجوهر الأم، وأصبح لدي مكتبة وقد أبدلتها ببوفيـه مزخرفـة الزوايا، يصطف بداخلها الأطباق مباهية بها صديقاتي.

اتخذت من ركني المفضل بالبيـت زاويـة إبـداع وبـدأت بتنفيـذ خطة الطبيب، بعد أن اشتريت الكثير من الكرتون والألوان الساطعة ورسومات كثيرة لقد بحثت عنها في أكثـر مـن مكـان حتـى حصـلت على أفضلها، فبدأت بتقطيع الكرتـون إلى مربعـات متسـاوية بحجـم ورقة بيضاء، ثم بدأت أتخيل أهم الأشياء التي يحتاجها ويطلبها، كالماء والطعام والحلوى، و المكعبات، حتى أني طبعت صورا لمحمـد واحمـد ولي، ولم أنسى أن أضع صورة حسام كتذكار فقط، رسمـت الشـارع والبقالـة، رسمـت الرصـيف والسـيارة، رسمـت الحمـام والمطـبخ، والكثير الكثير، رسمـتُ كـل مكـان ممكـن أن يـذهب إليـه بـرفقتي، بصـدف محتملـة وغـير محتملـة، لقـد اختلطـت علـيَّ الاحتمـالات الحسابية، والمواقع الجغرافية والفن وشيء من العلوم في سبيل الإنماء، لم يكن الأمر سهلا البتة، بل كان عليَّ اعتصـار معلومـاتي والبحـث بالكتب التي اشتريتها والبحث في الشبكة العنكبوتية (الانترنت) عـن

كل ما يخص حالة ناصر، لكن النتيجة عظيمة بلا شك، أثر النحلة بدأ يفوح بايجابية، وأثر الفراشة بدأ يتبخر بعفوية!

يمكن للإنسان أن يتفوق على توقعات نفسه حين يجتهد بقصدٍ وعزيمة.

في حجرته، علقت الرسومات بشكل متسلسل مبتداه بالأهم ثم الأقل أهمية وهكذا، وفي كل زاويا بالبيت وجدرانه بألوان مغرية، غالباً عليه لونه المفضل الأحمر.

شعرت ليلتها بأني أم حقيقية، وقد بدأت أتعافى من ياسي، شعرت بروح مختلفة اعترتني، محفزة و شاكرة على ما قدمت من عملٍ جاد، وغير متوقع، وقد سرحت بخيالي بعيدا، على ما سيكون عليه بعد أن يبدأ بالعلو تدريجياً، وكيف سيبدأ بالاعتماد على نفسه محاكياً تصرفاته بلا اعتماد واتكال، بدأت أحلم يقظةً، مصفقة بيدي تمهيداً لانتصاري، فأجابني صوت رنين هاتفي.

حملته بين يدي، و أجبته على الفور

ـ مرحبا، أنا دلال.

بقيتُ صاغية لصوت امرأة، ليست بغريبة، بدت لهجتها شامتة، منتقمة، تحدثني ليلا، منتزعة صباح تفاؤلي، في ظلمات شرها، لتخبرني بفرح.

قائلة:

ـ لقد ذهب حسام زوجي، لإحضار العشاء وبعض الزهور، لكي نمضي أول ليلة من زواجنا معاً.

سألتها بهدوء.

ـ من أنتي؟

أجابت بمكرٍ قديم، خبأته مستغلة أيام ضعفي، لكي ترسمه في أيامها هي، اعتلت فجأة حروفها غُبار الحقد، وأجابت:

ـ أنا من نجحت باستعادة حُلمٍ، لم يطل بعده عني.

حين أخبرتني بجوابها، بحُنكة مني، استطعت أن أتذكر صوت امرأة، حدثتني من قريب، وقد كانت ثملة في ليلة منحوسة، ببعض الجمل الغامضة، بنية مُلبدة بالأغلال المُزينة بابتسامة حمراء، ظننتها ناصحة لي صدقاً لا خصماً، مستوعبة نيتها بتريث.

ثم أكلمت:

ـ أنا زينب؟

"ستواجه أياماً في حياتك أحد من نصل السكين، أيام ستشعر بها بوحدة الروح قبل الجسد، ستشعر بأن من كان لك سيكون عليك، ومن تذكرته دهراً سينساك في يوم، ومن قدسته بحبك سيدوسك بانتقامه، ومن أكرمته وداً سيجرحك بأفعاله، حتى تنزف كرامتك دون دواء".

أغلقت الهاتف على مهل، وقد أصابني شر البلية، الذي أوقعني بضحكة مستهترة بانفجار الدهشة، حتى صمتُ بغلي متغافلة الحدث، ومتجاوزة اللحظة، متناسية الماضي، ذهبت إلى كرسي الهزاز، وجلست عليه متماثلة لآلامي، و من خلال نافذتي، بدأت أطالع القمر، وقد كان بدراً، يخجل من جماله السماء، و بدأت الأسئلة تنهال عليّ كمطر الصيف.

متسائلة:

ـ كيف للحياة أن تجمع بين زينب وحسام، تحت سقفٍ واحد، هل ستصبر على كلامه الجارح المبطن بهفواته؟ أم أنها ستهلك طاقاتها التائهة، في خدمة أميرٍ قنوط؟ هل ستدعه يهملها حتى في يوم ميلادها مبرراً ذلك بقيلولة إضافية؟ وهو هل سيصبر على امرأة اعتادت المسخرة بسطحيتها؟ أم انه سيتعايش و وساخة ظنونها؟ وهل سيدرك سطحية عقلها رغم عمق فكره؟ كيف لحسام أن يكون لزينب؟ كيف اجتمعا وكيف تكيفا؟ كيف استطاعا أن يكونا داخل دائرة واحدة، بينما أنا قُطرها؟

قدم أحمد، وأخرجني من بحور أسئلتي، مفزوعاً من نومه.

ـ ماما هل أنتِ بخير؟

احتضنته ضيقاً وأجبته:

ـ بل أنا قوية.

ـ هل حدثك والدي؟

أكمل مُطمئناً قلبه بتفاؤل.

ـ هل هو عائد إلينا؟

أجبته.

ـ سيعود من غربته فقيراً، أعدك.

في الليلة الثانية، جلست مرة أخرى بمكاني، وقد انتقص من البدر شيئاً، إلا أن جماله بقي بل ازداد دلالاً، وأصبحت السماء والنجوم يحسدونه على مظهره، ذلك حمل لي رسالة، بمعنى أن الضربة التي لا تكسرك تقويك، ونقصانك إذا ما عدلته سيغنيك.

فكرت أكثر حتى وضعت عهداً على نفسي، بمواجهة، ما ثَبتَ لدي من صلابة، محتارة في أسلوب تحقيق الهدف، بتوازن كثير ومخاطر قليلة، للوصول إلى مبتغاي بسلام، ترددتُ بالوضع الذي سأكون عليه بمجابهتي، بين الدفاع والهجوم، بعد كل الانكاسارت كان علي أن اختار واحدة منها.

نطقت هامسة:

ـ "رحم الله امرئٍ عرف قدر نفسه".

بعد تفكير مالي و بتعقل، أدركت مكانة قوتي بذكاء و عرفت مقامي ومربعي، موقنة بقدرتي ومقامي، حتى ألهمتني قواي الخالدة

الوجود، بأن الهجوم سيكون أقرب للفوز، إذا ما تم اصطفائه، وقد خيل لي بأن المُدافع اقرب للهزيمة، من المهاجم.

وبينما كنتُ أعد قواي في تخطيط لخط الهجوم الأول، داهمني أول مانع معترضاً خطواتي، بصوت أحمد، يناديني مستغيثاً، تركتُ خلوتي، ولحقت مصدر الصوت.

ــ أمي تعالي إلى حجرتي.

ركضت نحو مضجعهم هاربة من وحدة تقدمي، مفزوعة من خوفي عليهم، وقفت على باب حجرتهم أطالعهم، كانا محمد و احمد جالسين أرضاً، وتحيطهم مجموعة من الألعاب وهدايا عيد ميلاد ناصر، يتعاركون بصراخ، وكل واحدٍ منهم يريد أن يستحوذ على ما يريد بأنانيته، متشبطين جميعهم بعلبة خشب داخلها أحجار صلبة، يهزونها بعنف، متنقلة بين أيديهم الصغيرة، صوتها يرن في مسمعي بغضب، معلناً حرب إخوة، شعرت بمدى خطورة الموقف، رغم بساطته، شعرت بفجوة ممكن أن تفرقهم بسبب دخيلٍ غريب، وبدأ تفكيري يأخذني إلى أزمة مستقبلية، إلا أن خصمهم الثالث (ناصر)، فاجئني بمشاركته في الحرب بعد أن كان محايداً، مشاركة ناصر في النزاع، ومحاولته في الاستحواذ على تلك العلبة، قد أدهشني بانشراح، حين رأيته بأم عيني يتصرف بحرية، ويقاوم لأجل نفسه، ويحدق بهم

ويصرخ كما يفعلون، ذلك المشهد رغم عنفه، إلا انه بشرني، تقدمت نحوهم لفض تلك الحرب الطفولية حول التملك.

صرخت منهية، ذلك النزاع:

ـ ما هذا؟ من أين كل هذه الألعاب؟

أجاب أحمد.

ـ هل نسيتي، هذه هدايا الحفل.

لم أكن من بين الناس، الذين يفقدون ذاكرتهم المؤقتة في لحظة، لكني بتُ مشغولة الذهن والفؤاد، معاتبة نفسي على هذا السهو الجذري.

ـ أوف، إنها هدايا الحفل.

هدأتهم واضعة كل واحدٍ منهم على جهة، لعلي أبصرهم بعدل، بعيداً عن التعصب والشفقة وشيء من التعسف، كان علي أن أراجع الكلمات الناصحة، التي قرأتها ليلة أمس، حول التعامل مع الأبناء، استوجب علي أن أصبح قارئة بإحكام، ومنفذة ببراعة بالرغم من استحواذ فكرة وجود ناصر بينهم.

سألتهم بحيرة:

ـ لم هذه اللعبة بالذات؟

أجاب محمد.

ـ أمي، هذه اللعبة للكبار مثلي أنا ومحمد، وليست لناصر.

أكمل موضحاً:
هذه اللعبة تُسمى (الشطرنج).
قاطعه أحمد ساخر، باستئثار:
ـ وناصر لا يعرف كيف يغسل وجهه.
رميتُ سخط عيوني على كلامه اللاذع منفعلة و راجفة، وأشرت بإصبعي نحو ناصر:
ـ اسمعوني ناصر أخيكم، وهو ذكي وذكي جداً، لهذا هو غريب بعض الشيء، وان أحداً منكم حاول أن يجرحه بكلمة، أو حتى بفعل، فاني سأغضب منه، وسأخاصمه لأيام طوال.
التفت أحمد إلي وابتسم وأيدني بقوله:
ـ أنا احبك وأحب ناصر.
نظر محمد إلى أخيه مقلداً.
ـ وأنا ايضاً.
صاح ناصر وبكى بتلهف وقد أشار بإصبعه، صوب علبة الشطرنج، لم أعي لما كل هذا الاهتمام بها، يبدو لي بأن التشابه بينها وبين المكعبات التي يحب، في العدد والحجم هو المُحرك.
وبتحيز مني طلبت:
ـ هل تسمحون لي بأن أعطي هذه العلبة لناصر.
رد أحمد بوعيه الذي يعجبني على الدوام.

ـ أنا موافق إنها المرة الأولى التي يطلب منا شيئاً.

كان جوابه اختصاراً لطريق وعر، قد استصعبت سلوكه.

أما محمد فقد ظل صامتاً، أظنه رضي مُجبراً، حتى رضينا معاً.

فيما بعد، وبعد أن أخبرت طبيبه عن هذه الحادثة، نصحني بأن اجمع قطع المكعبات التي يحب، وأخفيها لبعض الوقت عن أنظاره لعله يتشبث بالشطرنج، كمهارة علاجية في التغيير بين الاهتمامات لديه، وقال لي حينها ناصحاً:

ـ استبدال الأشياء والمقتنيات، من شأنها أن تنمي قدراته، مُحفزة تطوره نحو الأفضل.

أصبح ناصر يجلس في غرفته منعزلاً، بالساعات يتخللها قضاء حاجاته الفطرية، جالساً بين مكونات اللعبة باحثاً عن أسرارها، تارةً يخلط الأبيض بالأسود محاولة منه أن العثور على نهاية في الدمج، ومرة أراه ينسقها بانتظام مضبوط الشكل، وأحياناً يثور بين جدران غرفته، طالباً الاهتمام، وباحثاً عن والمجهول.

في يوم من الأيام خرجت به إلى الشارع والسوق، لكي أدمجه بالعالم الخارجي من جديد، بعد أن بدأت باستيعاب عالمه الخاص، وتلك الخطوة اتخذتها بعد أن استغرقت أيام وليالي في استدراج حروفه التائهة في جوف حلقه، مُحاولة إخراجها بحبل الود والعلم، تقصيت كل الطرق والسبل في تكرار المصطلحات على مسمعه،

واضعة كل الاحتمالات التي سيراها خارج معقلهِ، كالدكان، الحلوى، هدية، لعبة، طماطم، شارع، سيارة سماء وأرض وغيرها، اجتهدت معه بكفاح منهك، وبذلت كل طاقتي في تكرار كلمات الحياة، التي رسمتها أمام نظراته الشاردة، وبسمعه المُستخف بي، دون أن أبالي بتركيزهِ الضائع، و بمواظبتي المثابرة على ترديدها، حتى ظننت نفسي ببغاء بنقيقه، وأخيراً أعطاني شيئاً ضئيلاً من اهتمامه، يكفيني جزاءاً على تعبي.

اصطحبتهُ على مهل، وأمسكتُ بيده، ومشينا على الرصيف، وسط الأزمات المتداخلة، والناس الجارية، وعلى أصوات الباعة المتجولين طربونا بإزعاج، أما ناصر فقد كان كما لو أنه قد خُلِقَ من جديد، يحاول من غير رغبة أن يتعرف على دنيانا، وقد حاولت جذب اهتمامه لكل ما هو حولنا، رغم كثرة شروده وانعزاله، لكني أصريت وقاومت حتى آخر نفس، وأثناء مرورنا من أمام بقالة مغرية بألوانها، وهيئتها وقف أمامها مُركزا، رفع يده صوب علب الشكولاتة، التي رآها من خلف الزجاج، وبدأ بالنطق على مهل بحروف فارة من استيعابه بقول:

ـ حل، حل حلو.

أكملتها بالنيابة عنه بفخرٍ، ممزوجاً بنشوة الفوز.

وقلت بصوت عالي:

ـ حلوى

ذلك الانتصار جعلني اصرخ في الشارع كالبلهاء، لم التفت حولي، لإخفاء خجلي، بل أكملت طريق انتصاراتي دون تمهل، و دخلت معه البقالة، واشتريت الشكولاتة التي أشار بيده نحوها.

قدمها له صاحب البقالة بصوتٍ مُشفق.

ـ تفضل عمو.

بعد أن تلمس بكفه على رأس ناصر رأفةً بحاله، إلا أن تلك اللمسة أصابت فؤادي بمغصاً أليماً، رغم إصراري سلفاً، هجران كلام ونظرات الناس اتجاه ناصر إلى إشعار النجاح، لكني تألمت.

استمررت بإسماعه جبراً كل المفردات، كنت اشعر أحياناً بأني أتكلم مع جدران البيت، حتى بالحمام كنت اكرر أسماء كل مايحيطوه، وبينما يدور حولي بالمطبخ استبدلت ترديد أغاني فيروز الصباحية، بتكرار كل شيء امسكه بيدي، وبينما هو يلعب و يشاهد و يصرخ كنت اكرر كلامي، وأوامري، بصوتً واضح، حتى أبنائي أصبحوا يقلدوني بهذا تعاوناً، اختفى صوتي لساعات إفلاسا، هرولت إلى الصيدلية باحثة عن دواء يعيد لي صوتي لأعيد ولدي.

مازال ناصر مهتما جدا باللعبة (الشطرنج)، حتى أعداني اهتماما وولعًا بها، تحريت عنها نابشة بتفحص، من خلال شبكة (الانترنت)، لكي أخوض بها و معهُ و لأجله، موثقة عهدي فيه،

جنباً إلى جنب حتى النهاية، لم أكن اعلم عنها شيئاً، حتى أني لم أكـن أحبها، وقد اعتبرتها لعبة العباقرة، وأنـا لسـت مـنهم كمـا اعتقـدت ساعتها.

قرأتُ يوماً بأنها واحدة من أقـدم وأشـهر الألعـاب اللوحيـة، ويلعبها اثنان فقط، على لوحـة مرقعـة بـاللونين الأبـيض والأسـود، بواسطة قطع مخصصة، تختلف باللون لكل لاعب، والهدف منهـا هـو إماتة ملك الخصم، بوضعه تحت التهديد، بحيث لا يمكن الفرار منـه. إذن، لهذه الغاية تستخدم قطع الشطرنج، لمهاجمة وأسر قطع الخصـم، وفي نفس الوقت، للدفاع عن بعضها البعض، ضمن خطوات محدودة الحركة لكل قطعة.

أصبح ناصر محتاجاً أكثر للاندماج، ليتقدم مضياً مـع الأطفـال والناس، والأشياء بمجتمع خارجي، بعيد عن البيت وعني، في مكـانٍ آخر عن غرفته وألعابه، بحثتُ بعـزم وتـروٍ و بمسـاندة الطبيـب، عـن روضة تربوية، تسمح بـدخول ناصـر صـفوفها والتجـول بأروقتهـا، ومخالطة طلابها دون حدود، دون النظـر إليـه بـاختلاف، بعيـداً عـن التذمر أو التنمر، نصحني الطبيب بمركز تربوي خاص، إلا انـه، قـال لي وقتها:

ـ ليس كل خاص ومكلف، ثمين.

فقررت أن أدخِله في روضة قريبة، من البيت ووقاية لأي طارئ، وقادرة للوصل إليه دون عراقيل، زرت الروضة وناصر، كان يتلفت بكل مكان، وأحيانا يلتصق بي ذعراً، دخلنا المكان ويده بيدي يمسكها بقوة وبخوف، سرنا بين أروقة المكان وبين جموع الأطفال والمعلمات، حاول الجميع الاقتراب منه والسلام عليه، و البعض ابتعدوا عنه، أما أنا فقد حاولت جاهدة، بأن أدمجه بقربي منه، محاولة أن أجعله يتقبل كل ما يرى ويسمع لكل صوت، من دون أن يلتفت إلى نظرات الطرف الآخر، وقد أعطيته كل ثقتي، كانت خطوة صعبة و جريئة وجميلة لكنها قاسية، وقد أرهقتني وإياهُ إلى حد الهلاك، حتى انتصرت، و بات فرداً من المؤسسة.

سألتني يومها المديرة، بحضور المعلمة.

ـ وما علته؟

أجبتها بثقة:

ـ مصاب بطيف التوحد.

نظرت إلى المعلمة، وقد بدا عليها، وسواس الخوف من مواجهة ناصر.

قاطعة خوفها، و بطمأنينة متناهية وببساطة أجبتها:

ـ ناصر طفل، حساس الى أقصى حد، و صادق كالملاك، ويقابل من يؤذيه بسلام، هل هذا الطفل يخيفك؟

أكملتُ.

ـ أمنحيه الحب.

أذكر ساعتها، بأني لم أتركه، قبل أن آخذ من معلمته عهدا، بأن تحافظ عليه وعلى جهادي به، دون رشوة!

باليوم التالي اصطحبت معلمته معي على طبيبه، وقد سمعت بشكل مباشر منه عن حالة ناصرو كل ما يلزم، وكانت تلك التجربة قد اختصرت علي وعلى الخطة بأكملها خطوات ثقيلة الدفع، عاهدتني معلمته بعدها، بأن تتقي الله فيه وبقلبي معاً، عاهدتني بإخلاص، بأنها ستكن له الظهر الآخر بعد أمه، وأن ستتخذ منه، حالة تحدي جديدة، لقياس صبرها ومدى أمانتها، و بأن تعامله بما يحب هو، وليس بما يحب الناس.

حين تكافأت أنا وناصر وإخوته، والطبيب والمدرسة، أصبح الأمر أسهل مما هو عليه، وقد بدت الحياة تزهر في قلبي، مرتوية من نبع تقدمه إلى الأمام، لقد كنت أهاتف معلمته كل ليلة، وكأني على موعد مع الانتصارات، و أحيانا شيء من الخيبات، لكني وضعت ميزان الأمل بين عينيّ، لعل ناحية الفرح ترجح بالنهاية، وتنصف تعبي وصبري.

اعتمدت أسلوبي الذي تعلمته عن التواصل البنَّاء، حتى أصبحت أكثر قرباً منه، حين آمره أو أحادثه أقترب منه، على بُعد

قريب جداً، بُعد لا يتجاوز عشرة السنتيمترات، محدقة بـه مباشـرة، و على طول الحديث، حتى أنتهي بهذا الأسلوب، أصبح أكثر تقـدماً للتواصل مع الآخرين، وقد كلفت ولـديَّ أحمـد ومحمـد بإتبـاع ذات الطريق، وعززت دوامهما على ذلك، بإعطائهما الهدايا الـتي يحبـون؛ حتى أصبح ذلك الأسلوب نمطاً معتمداً في التواصل معه.

أخبرتني معلمته بأن ناصر أصبح، يلعـب أكثـر مـع الآخـرين، رغم رفض الـبعض لـه، لكـن سـرعان مـا تنجـده معلمتـه وبعـض الطلاب بالقبول، كل تلـك التحـديات الـتي دامـت خـلال الشـهور الأولى، كانت تتأرجح بين الإحباط واليأس، وبين الفـوز والخسـارة، ولم أنسَ حين هاتفتني يوما معلمته وقالت:

ـ ناصر غنى معنا أنشودة الحروف، وكان لحظة غنائه يحدق بي، لكنه وبنفس الوقت أمضـى بـاقي اليـوم جالسـاً بعزلتـه حتـى نهايـة الدوام.

حـين سمعـت حـديثها هـذا، أخـذت الجانـب الايجـابي منـه، ورميت خلف أذني السلبي، حتى كدت أن أفقد عقلـي مـن فرحـي، بكيت بهجة وانتصاراً لناصر، تركت هاتفي على سريري، وركضـت نحو حجرته، واحتضنته بقبلاتي، تقدم محمـد واحمـد وجلسـا حولنـا، وأحطناه جميعاً، ننشـد أغنيتـه معـاً، مـنطلقين بأصـواتنا نحـو السـمو،

تاركين خلفنا أثر فراشة سبق وأن أبادتنا يوماً، بعد أن حلقت في سقفها المثقوب.

وفي مكالمة أخرى من معلمته قالت:

ـ ناصر أكل وجبته اليوم لوحده، مع القليل من المساعدة، لكنه نسي أن يغسل يديه.

وبمكالمة أخرى بعد عدة أيام.

قالتها بشغف وهي تبكي:

ـ مدام دلال!

ـ نعم؟

ـ لقد أعرب ناصر عن حبه لك تخيلي؟

صرخت بفرحة:

حقاً؟

ردت:

ـ نعم، أنا لا اكذب، وكان ذلك من خلال نشاط جمعي حول الحب، لكنه بالنهاية صرخ ضجرا.

حين سمعت كلماتها تلك، أيقنت حجم العمل والتحدي والجهد، الذي واضبناه سويا، أيقنت بأن من جد وجد، ومن سار على الدرب وصل، أيقنت بأن التعاون والوحدة أساس النجاح والقوة، أيقنت بأن الحب لا يقبل إلا الحب، وبأن المستحيل سيزول

إذا ما حاربتهُ بالُممكن، من خلا إيمانك ويقينك، بأن الله معك مادمت معه، بقلبٍ صالحٍ ونيةٍ سليمة.

مضى علينا أربعة أشهر عِجاف ممزوجة بأيام سِمان، تبشرنا بالفرج، في تلك الفترة تطورت حالة ناصر ايجابياً بشكلٍ يليق بتعبنا، ومكافحتنا، وإصرارنا جميعًا، في كل أسبوع يمضي كنت أدون كل حركة قد أكتسبها، وكنت أمحو من قاموس علاجه كل تصرف رديء قد تخلص منه، تلك الأشهر من الاندماج والدراسة خارج البيت، قد أضافت على شخصيته الكثير من التطورات المحبوبة، أصبح معبراً أكثر، وينخرط بالتواصل باستيعاب أيسر، لا يهم النسبة بقدر التغير بحد ذاته، إلا انه مازال شغوفاً بشكلٍ خاص بلعبة الشطرنج، التي أخذت من عقله زاوية لا بأس بها من الاهتمام والقرب، حتى باتت جزءاً من تفاصيل يومه، ووقعت بحب تفاصيله البسيطة، وعاشقة لاهتماماته الفريدة، خاصة حين يرقد بانعزال في حجرته، برفقة تلك الرقعة العبقرية (الشطرنج).

أعدت فتح التلفاز بعد أن أوصلتهُ بشبكة الانترنت، باحثة عن برامج حول لتعليم الشطرنج بعبقرية، حين شاهدها اندمج معها على الفور، حتى بات يقضي ساعات طوال، أمام تلك البرامج و بتلهف.

أخبرني الطبيب يوماً بأن أبحث عن هواية تناسبه، شيء شغوف به، يحبه دون ملل أو كلل، وقد لَمَح لي من خلال نصيحته، حبه للشطرنج..

سألته وقتها:

ـوهل لطفل التوحد هواية، كغيره من الأطفال؟

أجابني مؤكداً:

ـ طفل التوحد، يُظهر اهتمامه في شيء معين، ويبدع به إذا ما تم ذلك بعناية، تفوق الاهتمام الطبيعي، أطفال التوحد، تلهمهم الموسيقى، والرياضة، والألعاب الذكية، أضف إلى ذلك تصميم الأزياء، وفي نفس الوقت، ممكن لطفل التوحد، أن لا يُظهر اهتمامه بأي مجال، وهذا طبيعي.

أكمل بابتسامة:

ـ يكفي أنه هدية مميزة من الله.

أضاف مرشداً:

ـ استغلي تعلقه هذا وأسعفيه به باهتمام.

خطر ببالي فوراً، بأن أسجله بمركز مرخص لتعليم الشطرنج، ما كان لي خيار، أفضل من مركز تعليم الشطرنج، الذي يبعد عن بيتنا عدة أمتار، أذكر أنهم افتتحوه قبل خمس سنوات، لكني استصعبت التجربة، لخوفي عليه من الفشل، لكونه مختلفا، خفت عليه

من براءته أمام شراسة الآخرين، خفت عليه من اختلافه أما غرورهم، خفت عليه من عالمه الذي يرفضه الآخرين وذلك ولَّد في قلبي خوفاً على نفسي من الانتكاس، فأحبطه، وأحبط قلبي ويحبطون اولادي، فينتكس مجتمع بأكمله!

توجب عليَّ في ذلك المركز، يجب أن أدمجه بأشخاص عاديين، من أعمار مختلفة، ليصادقهم في هوايته، ويتعارك معهم من خلال لعبة، ومن فئات عمرية مختلفة، كل تلك المفارقات قد استثارت حولي بشكوك قد خذلتني، ومخاوف أبعدتني عن التفاؤل، لكن كان لتحديقي به في كل مرة أراه ثائراً. وصندوق الشطرنج، يعيدني أملا على الفور، وكلما اقتربت منه، كان يرويني ثقةً.

وكأنه يقول:

ـ أنا أقدر.

ـ لا تخافي.

اصطحبته إلى المركز، ومشينا معاً يداً بيد، وبقلوب قابلة للقبول، بخطوات مستحكمة التتابع، وبمشاعر مضطربة، لوهلة انتابني ندماً، لعدم التروي، فصرفتهُ إرادتي بلحظة تقدم و مضيت.

حين وصلنا، كان باب المركز، ضخم، أكبر من قدرة ناصر لدفعه، فدفعته له ليخطو خطوته الأولى، رغم جهلي لما بداخله، وبصعوبة استطعنا عبوره، تقدمنا بخطوات ثابتة إلى الداخل، حتى

وقفنا أمام شخص أعتقد بأنـه المسئول هنـاك، كـان طويـل القامـة، وممتلئ الجسد، كانـت هيئتـه بعيـدة عـن الصـورة الـتي ارتسـمتها في عقلي، كان اقرب للمصارع منـه إلى لاعـب شـطرنج، زاد شـكله في قلبي هاجساً، وفي قلب ابـني رعبـاً، تقـدم نحونـا و اقـترب منـا حتـى أصبح يبعد عنا اقل من مترين، كتف يديه وبكبرياء سألنا:

ـ هل يهوى ولدك الشطرنج؟

أجبته بتردد:

ـ كثيرا.

اقترب المسئول منه وحدق به، اختلفت نظرات عينيـه، بازديـاد عدد رمشه، ابتعد ناصر عنه، والتصق بي أكثر

وقال:

ـ لكنه غريب الطباع والشكل! هل هو مريض؟

أجبتُ بثقة.

ـ بالتأكيد لا، هوسليم معافى.

اعتلى صوتي بثقة:

ـ هو مُميز بإصابته بطيف التوحد، ومشخص بأنه بسيط.

أزحتُ حقيبتي مـن علـى كتفـي، وحملتهـا بـين يـدي وبـدأت بفتحها، لإخراج أوراق فحوصاته وشهادة ميلاده، وفجأة وقعت مني حقيبتي، حين كسر شوكتي، باستهزائه ساخراً، مقاطعاً:

ـ إذاً هو طفل مريض؟

ومريض نفسي أيضاً؟

أكمل بتغطرس:

ـ كيف لنا أن ندمج مريض نفسي، ومصاب بمرض العزلة معنا؟ في مركزنا المحترم؟

سقطت دموعي مني خيبةً، حين ظننت بهم خيراً،

رفعت حقيبتي عن الأرض، واحتضنت طفلي، وأجبته:

ـ في الحقيقة، أنت عليل العقل.

لا اعلم كيف لمركز تعليمي، يستقطب الهوايات العبقرية للأطفال والكبار وتتبناها، تحت مُسمى (تنمية الإنسان الهادف)، قادرين على ارتداء أقنعة الزندقة بتميز!

ذلك التنمر الفصيح والصريح، من قبل مدير المواهب الخلّاقة هذا، قد شبَ في عزيمتي ركوداً بامتياز.

بقيتُ في كَساد الإصرار، لحوالي الشهرين، وأنا محاطة بكلمات التنمر، التي افترستني بشراسة، و التي طالت عزيمتي وابني.

"حين صنف العالم دوله، ووضعها بثلاث خانات عدلاً بين دول متقدمة، ودول نامية، ودول العالم الثالث، لم يكن ذلك التصنيف قد أتى عبثاً، ولم يكن يعتمد بتصنيفاته، على الصناعات التي يقدمها الشعب الأول المنتج للشعب الأخير المستهلك، كما نظن نحن،

الموضوع يفوق صناعة المواد إلى صناعة الأجيال المُثقفة وبناء عقول مُحاطة بوعي وعلم وثقافة مدروسة قادرة على التعامل مع الحيوان قبل الإنسان رِفقاً، ثقافات قادرة على تخطي المشاكل بعناية وإنسانية، وبمناهج متعوبٌ عليها بنية الاستثمار، لا فخراً بهم ولا تصغيراً بنا ولكن حباً بالجد وشغفاً بالازدهار".

في يوم شاق بتفاصيله، وبينما كنت وناصر في السوق، صادفتُ صديقة مشتركة بيني وبين زينب، صديقة عابثة بخصوصيات الآخرين بفضول، قالت لي:

ـ هناك تحدي عنيف قائم بين زوجك وضرتك؟

أجبتها بابتسامة صامتة.

ثم أكملت:

ـ تحدي حول البقاء، يعايرها بقوتك، وهي تعايره بقلة صبره، وركاكة حبه لأولاده.

وأضافت:

ـ يفضلك عليها بالتحمل والقوة والعقل، وتعاركهُ بسرعة غضبه، وكثرة تذمره وسخطه الدائم.

وقالت لي أيضاً بأنه فخور بي من وراء الجدران ويشعر بالخجل من نفسه كونه مع أخرى.

أما هي (زينب) فقد دعت ربهـا في ليلـة ظلمـاء، بـأن تفشـلي فشلا ذريعاً مع ناصر، فشل يليق بفخر حسام بـك، و لكـي تكسـب هي التحدي معه في سبيل أن يخسر هو حربه أمامها، كما قالت.

سألتني بإجابة، مفشية سرهم:

ـ هل تعلمين بأن زوجك، وضع شرط فشلك مع ناصر، للبقاء معها؟

أجبتها بدراية.

ـ هناك أشخاص نجاحهم الحقيقي، هي خسارة الآخرين.

هزت برأسها متضامنة:

ـ اتقي شره إذن.

أكملت:

ـ حتى زينب مريضة ببغضها، لكل من يحيطون بها.

أجبتها.

ـ مرضى النفوس كثيرون.

سألتني:

ومن هم هؤلاء؟

ـ هم؛ إن مدحت إنسان أمامهم، كأنك شتمتي شخصه، لدرجة أنهم يشعرون بالذنب، حين يمدحون غيرهم سهواً.

ابتسمت، ثم تنهدت، ثم سألتني:

ـ وماذا عنكَ أنتِ؟

أجبتها.

ـ أنا في داخل أفكاري، أخوض حرباً قوية الوطيد، اتجاه كل من عاداني، بكلمة أو فعل، بعتابه لي أو بسخطه عليَّ، أو نكران للجميل، ومازالت أحبال أفكاري تلك تتعارك حتى وصلت معها إلى هدنة (السطحية) و مع جميع المقاتلين، بلا استثناء.

سألتني بعد أن تذكرت فضولها:

ـ هل مازلتِ تحبين حسام؟

تنهدتُ اشتياقاً وندماً، مختصرة مشاعري، أمام فضولها.

ـ كنت أحبه بإفراط.

أجابت بحكمة غير معهودة:

ـ الإفراط، في كل شيء سبباً لخرابِ أي شيء.

عادت لتخترق خصوصياتي وسألتني:

ـ وهل حاولتِ العودة؟

أجبت:

ـ أحياناً تستحضرني ذكرياتي معه، فتجتاحني رغبة عابرة في محادثته، لكني أتذكر هجرانه لواقعي، فتموت روح ذكرياتي، ويموت معها اشتياقي.

ردت بتحري عنيف ناصحة:

ـ أظن بـأن الطـلاق هـو الحـل، لكـن أخـاف علـى شـعورك ياصديقتي.

أجبتها بزُبدة الحديث

ـ لا تقلقي عليَّ صديقتي.

ـ من معجزات الله في خلقه، اختلاف الشعور، الذي لا يتكـرر بتكرار المواقف.

في أحد أيام الاكتئـاب الـتي اجتـاحتني بعـد تعثراتـي، شـعرتُ بتهديد يستنزف جُلَ طاقتي، في سبيل إطفائي ومن كـل مـن يحيطـون بي، فشلي بدمج ناصر، في ذلك المركز، حتى ناصر بدأ بسلب عزيمتي في التصدي والمواجهة شـيئاً فشـيء، حـين اكتشـفت ضـعف بصـره، واحتدادُ نظره، اصطحبته إلى طبيب العيون خائفة عليـه مـن ظنـوني اتجاه نظره، إلا أنني صدقت الظـن، فصـدقتني الخيبـة، حـين أخبرنـي الطبيب، بأنه ضَعُف بصره، وبأنه لا يرى الأشياء بالحجم الذي نـراه نحن، بسبب ضعف إدراك بُعد الأشياء وحركاتها، وقد لاحـظ ذلـك من خلال عسر القراءة لديه، وصعوبة تمييز الحروف، فأصبحت رؤيته مهزوزة ومشوشة، وأصبح يقرب كل شـيء مـن عيونـه أكثـر، لكـي يدركه، وكأنه أحادي النظرة، ولا يرى الصورة بأبعادها الثلاث، كما نحن، بل مـن جهـة واحـدة فقـط، حيـث اثـر ذلـك علـى اندماجـه

بالأشياء، وعلى تطوره في التعلم، كل ذلك جعلني في ذهول، من المحتمل أن يصيبني بالعمى، حزناً عليه.

حتى حاسة السمع لديه، أصبحت أكثر انزعاجاً، من الأول، أصبح يفضل الهدوء والعزلة بشكلٍ رهيب، هارباً من أصوات نحسبها هينة الضجيج و بالنسبة له عظيمة الصخب، كصوت أخوته، حديثهم، أوامري، وصهيل الحصان، وزقزقة العصافير، حتى شخير أخيه أصبحت وكأنها صوت إنذار لما قبل الحرب، فيستيقظ باكياً حين سماعه يشخر، أصبح ناصر عنيداً مخادعاً و بتركيز، أصبحت أنام وأفيق وأنا أحلم به وبكل صفاته الجديدة، وخيباتي أمامها، وكأن تقدمي وناصر أصبح عبثاً، حتى بت مهددة أضعاف مضاعفة بالتراجع.

جلست مع ذاتي التائهة، وكُتبي الضاجة والكثير من حنكتي، عل كرسي الهزاز، كان الجو صافياً إلى أبعد حد، وقمري مختفي راحةً، معلنا انتهاء شهر من الدهر، وكانت النجوم تسطع في بصري، وكأنها بيوتاً من الأمل البعيد، جلست وقد سمحت لشريط حياتي وناصر بالمرور أمام بصيرتي، بعد إن أعطيت لعقلي فرصة نادرة، بأن تستدرج وحياً لاستقبال رسائل أفكاري، وكأني امتلكُ ساعة إلهامي بيدي، حتى مر نهر ذكائي أمامي، مُعاتباً:

ـ هو بعالمه الخاص، ولا يمكنه الخروج منه، وهذا مكتوب عليه، أما أنا على عكسه تماماً، فأنا قادرة على أن أخرج من عالمي إلى عالمه و بإرادتي.

أمرت نفسي قائلة:

ـ أخرجي من عالمك يا امرأة، وحلقي بعالمه، بتقبل ورضا، وحاولي أن توجهي صفاته لخدمة ذاته.

ثم سألت نفسي:

ـ كيف لي أن أطور من سلبياته كلها، في حين أن حواسه متضاربة بين التضخيم والتقزيم، وصفاته المتناقضة، ناصر يعاند بافتراس، ويُصر بقوة، ويحب ذاته بخداع الآخرين؟!!

رد الوحي على إلهامي، بإبداع.

ـ المفتاح بيدك، تعاملي مع حواسه كما يرغب ويحب، اخفضي اهتزاز الصوت، وضخمي حجم النظر، واجعلي من عناده قهرا للعدو، ومن خداعه طريقة للوصول إلى هدفه وغايته، ومن تركيزه وسيلة لتحقيق كل ذلك.

أكمل ذلك الوحي قوله، باختصار جازم:

ـ تقبليه.

ـ تقبليه كما هو.

صرخت بصوت مسموع:

ـ تقبليه واندمجي أنت معه، لكي يندمج هو معك.

قمت من مكاني تاركة كل هزائمي خلفي، وبدأت أخطو نحوه بوعي، لم يكن سيزور عقلي لولا عقبات قلبي، وقد قادني إلهامي حينها بأن أقابل كل ما يهددني بهزيمته بإرادة.

وقلت:

ـ توحدي معه يا دلال، نحن بحاجة لعالمه البريء أكثر مما هو بحاجة إلى عالمنا البغيض.

في اليوم التالي، ذهبت إلى غرفة ناصر ظهراً، وأخذت معي قلم تخطيط اسود، وآخر أحمر، وبينما كان ناصر يلهو بحيرته وأجزاء الشطرنج، نظرت إليه مطولاً، وكأني أتعرف على هيئته الآن، ورسمته على الحائط، على هيئة هيكل أسود، وأبرزت حواسه الخمسة باللون الأحمر، ذهبت مسرعة وأحضرت كرسي الهزاز وقد حركته من مكانه، ولأول مرة منذ ست سنوات، لهدفٍ أسمى من الاستمتاع بالنظرِ إلى قمري، وضعته أمام الرسم، وجلست أتأمله بتروٍ يُنذرني ُ بالطيران.

وقد وضعت هدفي من فكرتي تلك، بالتعليم و التطوير والتحليق به عالياً الى ما يحب، فبدأت أرسم حواسه بالأحمر، أوقفت القلم عند أذنيه و تساءلت:

ـ بت أعلم بأنه يريد أن يتعلم الشطرنج، سأضعها كهدف في تحديد مصيره التطوري.

فبدأت برسم أذنيه وقد قزمتهما أكثر من اللازم مبررة ذلك بحب الهدوء، وضجره الشديد من الإزعاج.

ذلك التقزيم ألهمني بفكرة حدثت نفسي بها:

ـ ماذا لو خففتُ من نبرة صوتي؟ وصوت كل مايحيط به، وكأني مصابة ببحة قد جعلت من نبرة صوتي تنخفض درجتين، تتلاءم وقدرته السمعية؛ راجية من ذلك الوصول إلى معقل فهمه وإدراكه، وبالتالي يتعلم أسرع .

تركت أذنيه وقد هبط نظري إلى الأسفل درجتين حتى تلاقى ونظره، رسمت له عينين كبيرتين.

ثم سالت نفسي:

ـ ماذا لو كبرت من حجم الرموز والصور، في سبيل تعظيم كل ما يراه أضعافاً تتناسب وقدرة بصره؟

ماذا لو صنعت له أحجاماً بدلاً من رموز؟ وصوراً بدلا من كلمات؟ فبذلك سيصبح يرى كل شيء من زاوية كبيرة ولا مجال للاختلال؛ مدمجة البصر مع اللمس سوياً.

سقط نظري هاوياً إلى يديه واضعة حاسة اللمس في فكري، والتي تعد من أهم الحواس التي تعزز تعلمه وتواصله، إذا ما تم التعامل معها باستحكام، وذلك دفعني للابتكار متسائلة .

ـ وماذا لو حولت لعبة الشطرنج بأكملها إلى غرفة ملموسة، وواضحة الرؤية، والشكل؟ وحولت كل قطعة فيها وحجم ناصر تماماً؟

حين حلت فرصة التنفيذ، جمعت قواي وشيء من وصية سيدة العطاء، نسمة، وذهبت إلى مصنع الأدوات البلاستيكية، و قابلت المدير طالبة منه أن يصنع لي وبشكل خاص ثلاث نماذج للعبة الشطرنج الأولى رقعتها بحجم غرفة ناصر، وحجارتها بحجم ناصر تماماً، باللونين الأبيض والأسود، والثانية تصغرها بالنصف، والثالثة بحجمها الطبيعي واكبر قليلا، وهكذا يبدأ بالتعلم شيئاً فشيء وفقاً لعالمه، (ولكل طفل متوحد عالم خاص)، يتقدم بخطوات تتناسب بقدرات حواسه، وسأبدأ بسحب الأحجام منه تدريجياً من الأكبر حتى الأصغر، حتى يعود بثقة صوب اللعبة العادية التي كان يمتلكها بدايةً.

أوهمت محمد بأن النجاح الحقيقي يكمن في معاركة ناصر بالشطرنج، وأوهمته أيضا باني أحب من يحب اللعبة، واهتم لمن

يربحها، مستغلة حبه لاهتمامي به، من اجل تحدي أخيه وبقوة، لعل ناصر يتحدي محمد بعناده.

أبقيت أحمد محايداً سياسياً، كما شخصيته تماماً، ووضعته في مكان الجمهور المشجع، حتى أخلق في ناصر روح المنافسة، دون رضوخ، ودون عنصرية، ولكي يتعرف على نظرات العدو منذ البداية.

أما أنا فنويت احتراف الشطرنج بحذافيرها واعلمها لأولادي جميعهم تضافراً وعوناً، ذهبت إلى نفس المعهد الذي رفضوه تنمراً، وعرضت فكرتي و مالي على أحد المدربين العظماء، فوافق دون تردد، لا اعلم ما أغراه المال المعروض أم الفكرة الشجاعة، بالنسبة لي، كلاهما تقودني لهدفي، ولا فرق لدي بما يفكر هو، حتى تركهم ناكراً مجازفاً، ومشى معي وفي طريقي، حتى أصبح معلمنا الأكبر.

أزلت جميع الأضواء الاصطناعية من غرفة ناصر، والتجأت للطبيعة لأشعة الشمس، وأخليتها من الأثاث والفرش، وفرشتها برقعة الشطرنج، فأصبحت بيضاء و سوداء اللون، تنذرنا باحتمالي النجاح والخسارة، ورتبت العناصر، ثماني جنود، وقلعتان، حصانان، وفيلان، و وزير وملك، كل واحد منهم قد تجسم طوعاً وحباً بحجم ناصر، كان ناصر منهمك الفضول بما رأى، ومستريح السمع بنبرتنا الجديدة التي اتخذناها، باحتراف، حتى كدنا أن نتحدث بالإشارة.

كان المشوار معه صعب و التحدي لذاتي وإرادتي قوي ولئيم، صرخ برفض حين زاد المدرب من أوامره ضغطاً، و تذمر بضجر وبكاء حين وقع في خسارةً، يغضب بانعزال، لتكرار تلقيه لقوانين اللعبة وخطواتها، دون السماح له بحرية الحركة والتعبير، وبكى صارخاً، ولجأنا جميعنا للراحة ومن أجله، لنرضي عناده، و كان يفقد شيئاً من وعيه حين يزداد التحدي، حتى بتنا جميعا نعيش في عالمه، بكل تفاصيله، نرى أشيائه، من خلال صور معلقة وأجسام كبيرة متحركة بإرادته، نسمع قوانين مكررة، وأوامر مُعادة بكلمات ومفردات، وليس بأفعال كما اعتدنا وبفواصل زمنية دقيقة، ووقفات علاجية تتناسب و عالمه، معتمدين على قوة الصوت، مبتعدين عن الملامح التي لا يفهمها، مستخدمين كل كلمة على حدة لكي يدركها جيداً، مبتعدين عن تراكم الجمل، خوفاً عليه من الضجر من وابل الكلمات فيتذمر، ويرد بقلة إدراك، وأصوات هابطة النبرة، أصبحنا مُتوحدين بيدٍ وقلبٍ واحدٍ مع توحده، حتى بات عالمه يلاحقنا، في أحلامنا بصرامة.

بعد شهر أزلنا الرقعة الأكبر والتجأنا للوسطى، بدأ ناصر يتعلم القوانين شيئاً فشيئاً بهدوء أكثر، بدأ التذمر والملل يهطل على محمد ناوياً الانسحاب، لكني وعدته بحب خاص واهتمام بالغ، إذا ما ثبت معنا، بقينا على هذا المنوال، حتى ملَّ الصبر من إرادتنا.

جاء دور الحجم الأصغر والحقيقي، أصبح ناصر يحرك الجنود بمربع هادف، ويثير حركة القلعة باستقامة عاموديه، مُتحصنٌ بعظمتها، ويُنقل الحصان بثلاث خطوات بشجاعة وحماس، ويحرك الفيل بصورة قطرية واعية الخطوة، ويزلزل ثبات وزيره بثقة مرنة، ويحمي ملكه من جميع الجهات برؤية ثاقبة وحنكة، حتى أصبح مهاجماً كما أردته، دون أن أدري إن كان يُفضل الهجوم أم الدفاع قُدرةً؟!

"نجاحك الحقيقي ينبع من قوة ومتانة عائلتك، بقدر صلابة هذا الكيان ستنجو من غدر الزمان، وهفوات الأيام!"

دخلنا قاعة المواجهة، يداً بيد برفقة المدرب، كان شديد القلق خوفاً من أن يُخذل أمامنا، كان ناصر يتوسط أخوته بقوة غير معهودة وبعيدة عن التوقع، مُمسكاً بيدي بإقدام، مشبعاً همةً و وشجاعة، مُطعماً صرامة وجرأة، بكونه أصبح قادراً على خوض التحدي الذي نظمته هيئة العباقرة، بالتعاون مع أمهات أبطال التوحد وغير التوحد، كانت القاعة مكتظة بالجمهور منتظرين، كل منهم بأن يجلس بمكانه بحماس، أمامهم شاشات كبيرة تنقل معركة المقاتلين بدقة، أوجست نفسي خيفة، من فظاعة وجدية المكان، طلبت النجدة من ربي، ورجوت القوة من وحدة عائلتي، جلسنا سوياً ومعا في الصف الأول على مقاعد حمراء، أظنها صدفة جميلة لناصر، منتظرين وقت البدء

بأملٍ ركيك، كان قلبي يخفق أسفل قدمي دون خجلٍ مني، ويداي ترجفان بقدر هلعي، حدق ناصر بكل ما حوله من وراء نظارته الطبية، مُكتشفاً عالمنا الذي سيندمج وعالمه، كانت الأصوات مزعجة، فلم أنسَ بأن أضع قطناً أبيض في مرمى أذنيه، تحرسه من قنابل ضجيج الأصوات، وعبر مكبرات الصوت سمعنا اسمه، ينادون عليه بإعلان حين دوره، رافقته بهدوء يعكس ثقةً عالية مني، صوب طاولة المواجهة، جلس في المكان المخصص، وبقي ممسكا بيدي باستحكام، حاولت نزعهما برأفة، لكنه وبقوة أراد بقائهما، سمح لي حكم اللقاء بالبقاء رفقاً بحالته، كان خصمه يكبره بعامين على الأقل، لكني تفاجأت بخوف واعترضت بقوة، بكون الخصم لا يتساوى قدرةً و ابني، كان سليم من طيف التوحد، وقد أحضروه هنا ظُلماً لنا، ولم يرأفوا بحالة ولدي، حتى أنهم أجلسوه مقابل الجيش الأبيض، ذلك يعني بان البداية بيده، لكنهم واجهوا اعتراضي تعسفاً مُرتشين، فخضعتُ لطغاة خصمي، بضعفي على المواجهة.

مركز تعليم الشطرنج، كانوا مختبئين تآمراً خلف تلك التدابير، حاقدين على جرأتي، متفاخرين بتنمرهم،

تحديتهم على أنغام نبضات قلبي، وألحان ابتسامتي ودعواتي، أسنده على كتفي الذي لم يهزم قهراً، حتى انطلقت صافرة المُجابهة معلنة البداية.

جلس وخصمه أمام بعضهم البعض تتوسطهم رقعة الشطرنج بلونيها الأبيض والأسود، أما أنا فقد سمح لي منظم المسابقة بالوقوف خلف ناصر مباشرة مراعاةً لحالته.

ما إن بدأت المسابقة حتى نظر إليه خصمه باضطهاد وعنصرية، أهمله ناصر بشدة تحديقه بقطعه السوداء، بعناية مُحركاً ساقيه باهتزازات مُتعاقبة، وكأنها عقارب ساعة "بغ بين" في دقتها وانضباطها، بدأ الخصم مهاجما ًبالقطع البيضاء، موهماً نفسه بالانتصار متفاخراً بتعافيه، مستضعفاً خصمه بمرضه، وبدأ بتحريك جنوده صوب وسط الرقعة، محاولاً السيطرة على مركز المعركة، انتظر ناصر خطوات خصمه باندماج وتركيز لمعرفة مكانه، مدافعاً عن حقوقه في العيش والتكيف والاندماج، مبتدأً بتجميع عساكره بالقرب من بعضها البعض، وكأنها بنيان مرصوص كما عائلتنا الآن، بكبرياء قاسٍ لم يمهله خصمه صبراً، حتى تقدم مهاجماً بعسكري الملك مقدمهما بمربعين الى الأمام متنمرين ظُلماً، ظل ناصر مدافعاً بصبر، مراوغا بتحريك القطع مرة واحدة دون تكرار، شعرت بالخطر يحيطُ بمملكتنا العظيمة، وقد سيجهُ خصمه بحصار متمرداً عليه بتنكر، تاركاً خلفه منقصة في قلب ناصر، زاد ذلك من شعور خصمه بقربه من الفوز، أما ناصر فقد كان يحدق بقطعه ويحركها بهدوء، محاولاً الدفاع عن مملكته، متبعاً بذلك حركة واحدة ثابتة، مُستخدماً كل القطع دون

تردد، للدفاع عن نفسه، تجنباً لهجوم مُهين، حتى تضافرت جميع عساكره وعناصره لحماية مليكه، فجأة تحول هجوم الخصم لردات فعل سيطرة ناصر، حاول خصمه أن يتسابق مع الزمن مُعلناً تهديداً غاضباً، محاولاً إثبات كماله الذي يدَّعي أمام نقص ناصر كما يتهيأ به بإجحافٍ وطُغيان، دون إعطائه فرصة للتعبير والتقدم، أخذ ناصر وقتاً طويلاً في التفكير بخطواته، حتى أصبح يحرك عساكره نحو منتصف الرقعة، مهيئاً بذلك طريقاً لأقوى قطعه للتحرك بسهولة دون عراقيل، حينها نظر إليَّ ممتناً، وعندما عاود النظر إلى المواجهة، استشعر بتهديد يلاحق مليكه، وضع يده و حرك فيله، بعد حركة خبيثة من الخصم، حتى أصبح مليكه في بؤرة أمان، كحضن الأم، كان خصمه ينظر إلى عناصره يقدرها و بمظهرها الخارجي، في حين أن ناصر كان يفكر بعمق بمواقع العناصر ويحركها بخطوات متزنة متوازنة، لا يفرط بالهجوم متناسياً مواقعه الخلفية، مستخدماً عناده ومكره بدهاء، جعل خصمه فاقد الثقة بنفسه، وقد أضاع مقصده الحقيقي تماماً، كان شديد التركيز بما يفعل، بينما تشتت الآخر بكبريائه الزائف وعجرفته، بإستراتيجية مُفعمة بحق البقاء، أوقع ناصر بوزير خصمه، فأصبح الخصم محصوراً باللعب بما يريد ناصر وفقط، بإستقامة حرك قلعته محاصراً، بذلك ملك الخصم، حتى فقد الآخر سيطرته على نفسه مُحركاً حصانه بعجرفةٍ مغشوشة، مُتناسياً بذلك

قوة عساكره في الدفاع عن ملكه من الجهـة اليُمنـى، بعـدل وإصـرار تمكن ناصر أخيراً من كَش ملك خصمه، وباستطاعة و مُثابرة وإتقـانٍ مُحكم، وقوة وحذاقة تمكنت دلال من انتزاع حق ناصر في الحياة!

صفق الجمهور بحماس مُنبهر، مذهول ووقفوا جـميعهم فخـراً، وقفت معهم نبضات قلبي للحظة، مُنتهـزة طاقـة السـعادة في إبقـائي حية، وقف ناصر أمامي واحتضـني بقوتـه الـتي أصـبحت مِلكـه بـلا منازع، غادر خصمه خَجلاً، وبقينـا نحـن فخـراً، تقـدمنا نحـو منصـة التتويج بثقة، ولم أخطئ حين تركتُ نظرة الناس لولدي إلى حين بلوغ هذه اللحظة، لحظة الفوز الساحق. واضعة بعينوهم شـوكة الانتقـام، توجه الحكم على الفور بإعلان النصرِ لناصر وبإعجاب فريد، تقـدم نحوه والبسه ميدالية ذهبية ساطعة، تشـهد علـى عظمتـه والى الأبـد، وقفنا بشموخ نُلـوح بأيـدينا معـاً، كـان الطبيـب حاضـراً في الصـف الأول، ترافقه صوفيا، بينما جلس مدربنا في الصف الثاني على يمـين الطبيب، وصديقاتي في الصف الثالث، أما امرأة الميراث (نسمة) فقد كانت حاضرة في مطلع قلبي وفي خطوات ناصر، لقـد انتصـرنا علـى من تنمر علينا متنكراً وجودنا، على من استضعف قوتنـا، علـى مـن هجرنا هروبـاً، هـرول احمـد ومحمـد صـوبنا تـاركين خلفهـم مـرارة عيشهم، ويتمهم الوهمي، واحتضنونا باعتزاز، متباهين بعائلـة قـادرة على صنع المستحيل.

وأثناء خروجنا منتصرين، صادفنا حسام غُربةً، وقد تغيرت ملامحهُ مئة وثمانين درجة، افتقدتُ وسامته التي أضاعتها زينب بتعسفها، نظر في عيني بخجلٍ دامٍ معترفاً.

ـ أهنؤك من كل قلبي.

قابلته حينها بابتسامة غلابة، تغني عن كل الكلام والعتاب، والضيق، ابتسامة بشاشتها جبارة رابحة، ونظرة غالبة فائزة، رافعة الرأس قاهرة، وعاماً كاملاً من الكتمان.

ـ هل تسمحين لي بضم الأولاد؟

نظرا أحمد ومحمد إلى صمتي، طالبين الإذن من جُلَ تضحياتي بتقديرٍ منهم لي، فلم أمهلهم طرفة عين، حتى وافقت.

ضمهم ببكاء ونَدَم دموي، وَسع من حضنهُ شيئاً لناصر، مُستهيناً بهجرانه.

أجابهُ أحمد خائر النفس مُرتجلاً:

ـ مازال ناصر يفزع من الغرباء.

تنهد حسام بعمق، وقد شعرت بحرقة غربتـه، وحـدق بناصـر نادماً معترفاً:

ـ العظيمة لا تنجب إلا عظيم!

ـ فهذا عسل النحلة.

انتهى.

الكاتبة: خلود خالد.



كان قلبي يخفق أسفل قدميّ، دون خجلٍ مني، ويداي ترجفان بقدر هلعي، حدّق ناصر بكل ما حوله من وراء نظارته الطبية، مُكتشفاً عالمنا الذي سيندمج فيه، كانت الأصوات مزعجة، فلم أنسَ بأن أضع قطناً أبيض في مرمى أذنيه لأحميه من ضجيج الأصوات، وعبر مكبرات الصوت سمعنا اسمه، ينادون عليه بأن حان دوره، رافقته بهدوء يعكس ثقةً عالية مني، صوب طاولة المواجهة، جلس في المكان المخصص، وبقي ممسكا بيدي باستحكام، حاولت نزعهما برفق، لكنه وبقوة أراد بقائهما، سمح لي حكم اللقاء بالبقاء رفقاً بحاله، كان خصمه يكبره بعامين على الأقل، فاعترضت بقوة، كون الخصم لا يتساوى مقدرةً و ابني، كان سليماً من طيف التوحد، وقد أحضروه هنا ظُلماً لنا، ولم يراعوا حالة ولدي، حتى أنهم أجلسوه مقابل الجيش الأبيض؛ ذلك يعني أن البداية له، لكنهم واجهوا اعتراضي بالرفض تعسفاً، فخضعتُ لطغاة خصمي بقوتي على المواجهة والتحدي.

خلود خالد

صورة الغلاف للفنان المقدسي: طالب دويك





دار الجندي للنشر والتوزيع
samirjundi58@gmail.com